2271
.28
.388

2271.28.388
Hanna
Tariq al-khalas

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072540501

Hanna, Jurj

الدكتور جورج حنا

Tariq al-khalas

طريق الخلاص

تحليل وضعي لمحنة فلسطين
والقضايا العربية

الناشرون
دار الاحد
بيروت – لبنان

1-308

2271
.28
.388

الدكتور جورج حنا

طريق الخلاص

تحليل وضعي لمحنة فلسطين
والقضايا العربية

الناشرون
دار الاحد
بيروت – لبنان

الطبعة الأولى
تشرين الثاني سنة ١٩٤٨

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

الاهداء

الى المتمرد على الذل
الى الثائر على الظلم
الى الشباب
اهدي هـذه الرسالة

65-4

227/1
.28
.388

للمؤلف :

العقم والسلالة الجنسية ١٩٣٦

من الاحتلال الى الاستقلال

الطبعة الاولى ١٩٤٤

الطبعة الثانية ١٩٤٦

انا عائد من موسكو ١٩٤٧

فهرس

صفحة

توطئة ٩

الفصل الأول

المسؤولون عن الخيبة ١٣

الفصل الثاني

اسباب الفاجعة ٢٣

الفصل الثالث

طريق الخلاص ٤٨

الفصل الرابع

الفجيعة الزاحفة او قضية اللاجئين ٦٣

ملاحق

الحضارة العربية في القرن العشرين ٧٣

جدل بيزنطي ٧٩

توطئة

لو كانت معركة فلسطين التي خسرناها ، هي المعركة الحاسمة بيننا وبين الصهيونيـة ، لما كان لنا الا ان نندب مصير البـلاد العربية بعد النكبة . ولو كنـا نعتقد بان العرب بذلوا قواهم كلها ، واستنفدوها في محاربتهم الصهيونية ، لأوكلنـا امرنا الى القدر ، واقمنا حول فلسطين « حائط مبكى كذلك الحائط » نغسله بدموعنا ، صباحاً مساء ! ، مبتهلين الى الباري ، لكي يشفق علينا ويرحمنا ، وينقذنا من الذين اغتصبوا ديارنا ، ويعيد الينا فلسطيننا ، وينجينا من هلاك يدبره لنـا قوم نفخ بهم الغرور ، فاستأسدوا ، واشتروا ضمائر المستعمرين الطماعين ، فصوروا لهم فلسطين ارضاً سائبة ، اذا ساعدوهم على اختطافها من اصحابها ، فانما يجعلونهـا لهم ممراً ، يدخلون منه الى دنيـا العرب ، آمنين مطمئنين .

ولكن المعركة التي خسرناها ، ليست في نظرنا ، المعركة الفاصلة ، والكارثة التي حلت بنـا ، ليست بالكارثة التي تغلق علينا ابواب الرجاء ، هذا اذا جندنا قوانا كلهـا ، في نضال طويل وشاق ، واذا اقلعنا عن سياسة الارتجال والاستهتار ، هذه السياسة التي جرّت بنا الى هوة عميقة ، والتي اذا استمرت

٩

كتبت على دنيا العرب الذلّ والهوان .

ويجب ان ندرك ، بادىء ذي بدء ، ان كارثة فلسطين ، ليست هي الوحيدة ، التي تهدد الكيان العربي ، بل هي جزءٌ من كلّ ، اذا عالجناها منفردة ، واهملنا معالجة غيرها من الكوارث ، فاجئتنا الحيبة ، وصرنا الى فشل محتوم .

ويجب ان ندرك ايضاً ، ان النجاح لن يكون قريباً . فاسباب هذه الكارثة وغيرها ، ليست مما يسهل ازالتها ، في شهور او في سنوات معدودات ، هي اسباب ، تراكمت مع الزمن ، وعمل في تركيزها الاستعمار ، واحاطتها نظمنا الاجتماعية والبالية بكل عناية . فالاقطاعية التي ورثناها ، ولا نزال محافظين عليها ، والهوس الديني والروحاني ، الذي نحلّه المحل الاول في كياناتنا ، والجهل الذي نهدهده ، لنغذي به رجعية ، تشدّ بنا الى الوراء ، في عالم يمشي بخطوات واسعة وسريعة الى الامام ، والتقاليد التي يأبى سوادنا الاعظم ان تمسّ قدسيتها ، والفروض التي تفرضها على مجتمعنا ، وعلى اجهزتنا السياسية والادارية والاقتصادية ، جماعات جشعة ، وطبقات مسيطرة ، مهما اختلفت مقاصدها واهدافها ، فهي متفقة ، في تصرفها بالمجموع ، والحدّ من نشاطه ، والحذر من يقظته ، كل هذه الامور والاعتبارات ، تشكل صعاباً ، لابدّ لتذليلها ، من شحذ القوى ، وبذل الجهود والتضحيات ، في نضالٍ طويل الامد ، وبعيد الاثر . فاذا تذرعت الشعوب العربية ، بالصبر على المكاره ، واذا واجهت مصائبها ، بوعي وعناد ، جاز لها ان ترتقب فجراً نقياً ، مهما ادلهمّ ظلام الليل . فالامة التي تستسلم للنكبة ، لا ترجى لها الحياة . واني لا اخال

العرب ، يرضون بميتة ذليلة ، تسوّد صفحة تاريخهم المجيد.

هذا ما دعاني ، الى بحث اسباب الفاجعة الفلسطينية ، او بالحري ، فاجعة العرب في فلسطين ، والدلالة على المسؤولين عنهـــا ، متخذاً من هذه المناسبة ، فرصة لتعميم البحث عن الكوارث التي يفجع بها العالم العربي ، وعن طريق الخلاص منها ، لكي يتعرف اليها شبابنـا الناهض ، ويعمل على تلافي اخطائها ، ويسعى الى النهوض بدنيا العرب ، بوعي ، وايمان وتضحية .

هي رسالتي الى الشباب العربي النـاهض ، عساه ينهـض لاصلاح ما افسده رجال الامر والنهي التقليديون .

١١

الفصل الاول

المسؤولون عن الخيبة

من المسئول عن كارثة فلسطين ؟

هذا سؤال يتردّد على جميع الالسنة، ولا يلقى جواباً من احد. فالشعوب العربية ، باكثريتها ، تنحي باللائمة على حكوماتها ، وعلى الجامعة الاقليمية . والحكومات ، بتصريحات رجالها ، تلقي اللوم على سياسة الدول الكبرى الأجنبية ، وعلى مطامعها الاستعمارية . والبلاد غارقة في بحران مريع . والثقة مفقودة بين الشعوب وحكوماتها ، وبين جماعة وجماعة ، حتى ضاعت ثقة المرء بنفسه . فمن المسئول ؟

يقولون ان اليهود ، يقبضون على سياسة الولايات المتحدة ، ويوجهونها حسب رغباتهم ، وان « ترومان » يناصر اليهود ، ليؤمن تجديد انتخابه للرئاسة. وان « ديوي » الذي يزاحمه عليها ، في معرفته ما لليهود من شأن في ادارة دفّة الانتخابات الاميركية ، يسارع هو ايضاً لارضاءهم . اميركا اذن ، في قبضة اليهود ، وهي المسئولة عن كارثة فلسطين .

ثم يستعرض البعض الآخر ، موقف بريطانيا ، ليدلل على ان سياستها ، اثناء تمرسها بالانتداب على فلسطين ، كانت ذات وجهين ، يوماً عربية ، ويوماً صهيونية ، ودائماً انكليزية . هي ترغب في ابقاء نفوذها على فلسطين، وعلى دنيا العرب، تحالف في الظاهر بعض الدول العربية ، وتساند في الداخل اليهود ، تقمع الثورة العربية بقسوة وحشية ، وتجبن امام الارهاب الصهيوني ، او على الاقل تتظاهر باستضعافها في قمعه ، وعندما يحين وقت جلاءها عن فلسطين، تسارع الى اجلاء قواتها ، بطريقة تضمن بواسطتها رسوخ اقدام جيوش اسرائيل في كبريات المدن ، في حيفا ويافا وعكا وطبريا وصفد ، وغيرها ، فما ان تدخل جيوش صهيون ، حتى تعمد الى التنكيل بسكان هذه المدن العرب ، فلا يجد هؤلاء مفرّاً من هجر اوطانهم بالالوف ، وبمئات الالوف ، وتستفز « الانسانية السياسية » الجيوش البريطانية، وتتطوع لحمل العرب المشردين على بواخرها، وفي سياراتها، الى البقاع القريبة ، لتتركهم هائمين على وجوههم . هي « ظاهرة انسانية » لا ينفك الحبناء عن القول ، بانها خطة مبيتة ، ترمي الى اقصاء العرب عن فلسطين ، لكي لا يكونوا فيها اكثرية ، تطالب باحترام حقها في الارض المقدسة . اذن الانكليز مسؤولون عن الكارثة .

وروسيا ، الدولة الكبرى الثالثة ، هي ايضاً مسئولة . فهي على الرغم من عدائها للسياسة الانكلو اميركية ، ومشاكستها لها دائماً ، اقرّت فكرة التقسيم ، وقيام دولة صهيونية ، الى جانب دولة عربية، لعلّ أن يكون لها من احداها ، معبرٌ تدخل منه الى الشرق .

اما الدول الاخرى ، التي وافقت على التقسيم ، فهي تستوحي موافقتها ، اما من اميركا ، او انكلترا ، او روسيا ، اذ هذه لا يهمّها

من فلسطين ، اكثر من ارضاء سيداتها الدول الكبرى . فلنمطرها وابلاً من اللوم والشتيمة ، لانها هي ايضاً مسؤولة عن الكارثة .

وهكذا نجد لانفسنا اعذاراً ، نستر بها قصورنا وغباوتنا ، لنتخلص من المسؤولية ، لاننا قوم اعتذاريون، نفتش عن الاسباب، لا بل نختلقها احياناً ، لنبرر كسلنا وقعودنا عن العمل ، لان العمل يستوجب الجهد ، والتضحية، وانكار الذات ، وهذه الميزات لا تتفق مع ما سعت لتركيزه فينا السياسة الغاشمة ، من انانية واتكالية .

عبثاً نفتش عن اسباب الكارثة ، في خارج نطاقنا. فلا الانكليز، ولا الاميركان ، ولا الروس ، لا وربيّ ، ولا اليهود انفسهم ، مسؤولون عنها . فما احدٌ من اولئك الغرباء ، اتخذ موقفه منّا ، الا بعد ان عجم عودنا، ووزن مقاييسنا وقابلياتنا، واطمأن الى اتجاهاتنا، فكان منهم ، من لعب على صداقتنا ، فاستخفّ بنا ، وكان منهم من استفزته عداوتنا ، فتنكر لنا ، وانحرف عنا الى اخصامنا ، فكنا في كلا الحالين ، كبش المحرقة .

لنكن اذن صريحين وجريئين ، في حكمنا على انفسنا، ولنبحث عن مواطن الخلل في كياناتنا وانظمتنا وعوائدنا ، ولنعلم اننا نحن المسؤولون ، اولاً وآخراً ، عن مصائرنا ، فان عرفنا كيف نضطلع بمسؤولياتنا ، حكومات ، وشعوباً ، وافراداً ، استطعنا النهوض من الكارثة ، فنستعيد حقنا وكرامتنا ، واذا حاول كلّ منا التهرب من المسؤولية ، ضاعت علينا الآمال ، وكان تبجحنا ، بالقومية ، والتقدمية ، مدعاة لهزء العالم بنا .

فاذا وافقتني ايها القارىء العزيز ، على اننا نحن المسؤولون عمّا ألمّ بنا، فتعال معي، نوزع ما يصيبني ويصيبك ، ويصيب الحكومات

من هذه المسؤولية، لكي يعمل كل بما يخصّه على تدارکها .

لا اظن ان هناك مجالاً للشك، في أن القسط الاكبر من مسؤولية الكارثة ، يقع على عاتق الحكومات ورجالات الدول العربية . انهم قواد الحركة ، انهم المعلمون في المدرسة ، والقائد والمعلم اكثر مسؤولية من الجندي والتلميذ . فرجال الحكم في الدول العربية ، برهنوا في معالجتهم قضية فلسطين، كما برهنوا ، وما زالوا يبرهنون، في معالجتهم غيرها من القضايا العمومية كافة ، على انهم ليسوا اهلاً لتسلم القيادة والتوجيه. ولعلّ السبب الاكبر والاهم، انهم سياسيون من الطراز القديم ، اكثرهم تمرّس بها ، على يد المستعمرين الاتراك، او المنتدبين ، الانكليز والفرنسيين ، تتجلى فيهم روح الاتكالية ، والانانية ، وهوس الزعامة والسيطرة والنفوذ ، حتى ما أتى منها على حساب الامة ومصالحها . اما رأينا ، كيف كان هؤلاء السادة ، في اثناء المعركة ، يختلفون ، ويتشاكسون في اجتماعاتهم ، بينما البلاد تواجه الخطر الاكبر ؟ اما رأيناهم يوالون الاجتماعات في القاهرة ، وفي بغداد ، وفي دمشق ، وفي بيروت وعاليه ، وفي عمّان ، ثم يطلعون علينا ببلاغات ، ظاهرها اتفاق تام ، وباطنها لفلفة موقتة ، وتسويات مرتجلة ، حتى اذا خشوا حيرة الرأي العام او نقمته ، قالوا ان مؤتمرهم اتخذ مقررات سرّية ، ستكشف عنها الايام والحوادث ، وبعد ان تكرّ الايام وتتوالى الحوادث ، يرتفع الستار عن لا شيء ، كأنما بغيتهم الاولى ، لم تكن سوى ستر الحقيقة عن اعين الناس ؟ اما رأينا « اقطاب » السياسة العربية ، يتمطون الطائرة ، من عاصمة الى عاصمة ، ليطبقوا هذا او ذاك ، من الزعماء، كي يؤجل « كسر الجرّة » وفضح الخلافات ؟ اما رأينا وفودهم ، تجوب الدنيا، وتدخل المؤتمرات الدولية ، تتمرّد في خطبها على اقطاب الدول الكبرى ،

وتنحني امام ارادتها ، عندما يبطل دور الكلام ، متذرعة باعذار ، من حبك السياسة الملاّقة ؟ اما رأيناهم احيانا كثيرة ، يتجاهلون الخطر الاكبر الصهيوني ، ليشاكسوا بعضهم بعضاً ، ويثيروا خلافات اقليمية ، مدارها مصلحة موقتة ، او مزاحمة على نفوذ ، او بغية كسب مادي ، او اثارة لنكاية حزبية ضيقة ؟ اما رأينا ، سوريا ولبنان، بدافع الاثرة، يختلفان على سعر القمح ، وعلى اتفاقية النقد، وعلى السياسة الاقتصادية المشتركة ، فتحمل احداهما على الاخرى ، حملة شعواء، لو اقتصرت على الصحف والافراد ، لهان الامر، ولكنها تعدّت الى رجال القيادة والحكم، الذين كانوا يتناسون، في تصريحاتهم واجراآتهم ان « فيليباً » على الابواب ؟ اما رأينا تفرد رجال الجزيرة بسياستهم تجاه احدى الدول المناصرة للصهيونية ، سعياً لبيع نفطهم ، فتأخذ هذه الدولة نفطهم ، دون ان يقوموا بدورهم باية مساومة في القضية العربية الكبرى ؟ اما رأينا تفرد عمّان بسياستها تجاه دولة اخرى ، تفتح للصهيونيين ابواب فلسطين ، ولا تجرأ عمان على مخالفة مشيئتها ؟ اما رأينا بعض رجالات بغداد ، يروّجون لسياسة ، لا يقرّها البعض الآخر من رجالات بغداد نفسها ، فلا يكترثون بنقمة الشعب على معاهدة « بورتسموث » ؟ اما رأينا المصريين ، يحاربون الذين يريدون ان ينتزعوا منهم السودان ، ثم يمشون وراء الذين يحاربونهم في افريقيا ، ليساعدوهم على تثبيت سياستهم في الاراضي المقدسة ؟ اما رأينا كيف طغت الحزازات العائلية والعشائرية احياناً على الفكرة القومية العامّة ، فاضعفت حدة النضال ، لتقضي على وحدة الهدف ؟ اما رأينا هذا ، واكثر من هذا، وسط معركة يشنها علينا، عدوٌ عنيدٌ متوخياً سحق العرب، في جميع اقطارهم، دون تمييز بين مصريين ، او عراقيين، او سوريين، او لبنانيين ، او حجازيين ؟

17

لقد كانت الحكومات العربية ، تعتذر عن ضعفها ، بعدم وجود الاعتدة الحربية . فلما لم يكن عندها ؟ افقيرة هي ؟ ومن افقرها ؟ وكيف كانت تجد الاموال ، لانفاقها على المهرجانات ، والاستقبالات والبعثات ، والمآدب ، كما لو كانت اغنى دول العالم .

لقد اصبحت اسطورة فقر البلاد العربية مهزلة مخزية ، ان في التربة العربية كنوزاً يسيل لها لعاب العالم ، وتتزاحم الدول الكبرى في التراكض لاستثمارها ، لقاء ثمن بخس ، تشتري به رضى اصحاب السلطان ، وهو كل ما تطمع به ، في علاقتها مع العالم العربي ، وان في البلدان العربية ، ثروات متكدسة في خزائن الافراد ، لا يحصى لها عدّ . وان لدى اقطاعيي البلاد العربية ، وتجارها ، وحكامها اموالا تكفي لالف معركة كمعركة فلسطين . ولكن هي انظمة الحكم في هذا العالم ، التي تبيح تكديس الاموال في خزائن الملوك ، والحكام ، والتجار ، والاقطاعيين ، يقفلونها بوجه العامة ، لكي تبقى العامة في فقرها ، مظهراً ، يخفي وراءه تقصير المسؤولين ، فيستترون به سياسة التواكل والانقياد للغير .

لا . ليس طبيعياً ، ان تعجز الكتلة العربية ، بدولها السبع ، عن قهر ستماية الف صهيوني . فالكثرة تغلب الشجاعة كما تقول الامثال ، غير ان الكثرة ، تنقلب الى ضعف مشين ، متى دبّ في صفوفها الاختلاف وانتشرت الفوضى ، ومتى اختلفت مطامعها ، وثارت من جراءها الاحقاد . هذا كان شأننا ، وهذا مايجب ان نصارح به انفسنا ولا سيما المسؤولين منا ، عبرة للذين ولاتهم القدر على مقدرات هذه الامة ، ودرساً للذين يأتون بعدهم .

انه لمن سوء حظ الطبقة الحاكمة في البلدان العربية ، انها لا

تملك فيما تملك حالياً ، وهو كثير كثير ، اي سيطرة على التاريخ . فالجبروت التي تنعم به اليـــوم ، اضعف من ان يقوى ، على قلب السواد الى بياض ،عندما يسطر التاريخ ، صفحة المآسي ، التي نشاهد تمثيلها ، على مسرح السياسة العربية .

غداً سيقول التاريخ للذرية ، ان طغمة من مشردي الآفاق ، استطاعت ان تشرد اباءها من ديارهم ، وان القوّامين على العرب ، خانوا الامانة المقدسة ، المودعة بين ايديهم ، وان هؤلاء القوّامين ، كانوا لاهين عن المعركة ، بالاهواء وسخف العنعنات ، يصطنعون في مواكب المجد الزائف ، ستاراً على اعين الجهلاء .

وعندما يقول التاريخ للذرية ، ان في ملحمة فلسطين ، كان دخان البخور المحروق على مذبح الآلهة الكاذبة ، اكثر من روعة دخان البارود في المعركة ، سترتعش عظام الاجداد ، من لعنة الاحفاد.

ولا يحسبن القارىء ان مسؤولية الكارثة ، تقع على الحكومات فقط ، انما هي تشمل الشعوب العربية ايضاً . انها تشملني ، وتشملك وتشمل كل من استوطن هـــذه الزاوية من الدنيا . فان انحنينا بالقسط الاوفر من اللائمة على الحكومات العربية ، ورجال السياسة ، لاستهتارهم ، وعدم توجيههم العامّة ، التوجيه الصحيح ، فمن عـدم الانصاف ، ان نبرر العامة ، مما يصيبها من التبعة .

نحن نتحدث كثيراً عن وعينا القومي ، والاجتماعي ، والسياسي ، ونفاخر بتزايد عدد المدارس ، وازدياد عدد المتعلمين عنـدنا ، نفاخر بتراثنا وتاريخنا ، يسمع خطباؤنا الدنيا ، باننـــا حفدة الذين ذلّلوا الصعاب ، واستعمروا الامصـــار ، ونشروا حضارتهم في الشرق والغرب ، نفاخر بماضينا ، ونكتفي بان نعيش على امجاده ، لا نعنى

19

بحاضرنا ، ولا نعمل لمستقبلنا ، نكرم من كان ابوه « عنتراً » ومن كان جده اميراً ، ومن كان من سلالة العشائر الشريفة ، ونعمل على كبت الروح الوثابة فيمن خان القدر اسلافه ، فلم يورثوه المال والجاه والمجد ، نتجاهل عصر الذرة ، ويستهوينا عصر الناقة ، القرون تمشي سراعاً ، تطوينا الطية بعد الطية ، ونحن عنها غافلون .

اننا نعيش بعقلية ، لا نستطيع معها تفهم الحياة الحديثة ، ولا ندرك مقاييسها ، ولا نزن قيمتها بميزان العقل والعلم ، يغرينا في السياسة خداعها ، ومن رجال السياسة ، احتيالهم على الحقيقة ، ودهاؤهم في النفاق ، وتهربهم من الواقع ، وشعوذتهم على الناس ، ويغرينا من المدنية قشورها دون اللباب ، نكثر من تحدثنا عن الوطنية ، والعروبة ، والقومية ، ولكننا نضنّ على الوطنية ، والعروبة والقومية ، باية تضحية . ان الروح الجماعية ، مفقودة منا . تاجرنا وطني ، مادامت الوطنية تؤمن له الربح . حاكمنا وطني مادام هو في سدّة الحكم . اذا بذل احدنا جهداً او مالاً ، في قضية عامة ، فلكي يكون له من وراءه الفضل العميم ، فتنشر الصحف اسمه ، في جدول الفضلاء ، او الزعماء ، او المحسنين . هو يطلب جزآء عن جهده ، اضعاف الاضعاف . لا نشعر بالواجب ، لاننا من اعداء الواجب ، متى كان الواجب علينا تجاه الآخرين ، او تجاه ما تسميه الامم الحية وطناً . كل هذه الامور ، يرجع سببها الى عدم تفهمنا الوطنية الحقيقية ، وجهلنا مقاييسها وقيمها ، وعدم تقديرنا لمزاياها وحسناتها ، واكتفاء عامتنا ، بما يغريها به رجال السياسة والمتزعمون من مظاهر خلابة ، ودجل .

لقد كانت الكارثة مفجعة وموجعة ، ولكن ما هو افجع واوجع من وقوعها ، واكثر خطراً ، تهرب الاوساط من تحمّل مسؤوليتها

فلا الشعوب صحت من سباتها ، ولا الافراد شعروا بهول الصدمة ، إلا فيما نسمعه احياناً من خطب عقيمة ، ومساجلات جدلية او حماسية ، واستعدادات مرتجلة ، ولم تهب الكارثة بحكومة واحدة ، من الحكومات العربية ، التي وقعت هذه الكارثة على يدها ، لتتنازل عن الحكم ، ولو استحياءً ، بل بقيت كلها في سدتها ، تحاول اغراء الناس بالكلام المعسول ، والوعود الخداعة ، لتطفىء فيه روح النقمة كأن لم يكن شيء ، وكأن المسؤولين ، غير مسؤولين ، وبقيت الشعوب ، مترنحة في النشوى ، كأنها لم تذل .

لم يخبرنا التاريخ ، عن شعب ، اصابه ما اصابنا ، وذل كما ذللنا ، وبقي في خنوعه ، واستسلامه للقدر ، يعكر الفضاء بالتصفيق لاسياده ، حينما كان عليه ان يملأ الفضاء صخباً وضجيجاً . ولم يخبرنا التاريخ ، ان دولة ، اقدمت على حرب ، وانهزمت فيه ، الا وبدّلت قيادتها . فاما ان يكون القادة ، اخطأوا التقدير ، فبرهنوا عن قصر نظرهم ، او ان يكونوا ، اخطأوا التدبير ، فاعطوا الدليل على عدم كفائتهم ، او ان يكون هناك شكٌ باخلاصهم ، فيجب محاسبتهم . اما هنا ، في دنيا العرب ، فقد اخذنا بالهزيمة ، وابقينا على المسؤولين عنها ، كأنها حادث طارىء ، اعوذ بالله ، بل كأنها حادث مشرف للذين اشرفوا على ايقاعها ، تاركين لهم فرصة ثانية لاصلاح الخطأ ، على حدّ وعودهم وتصريحاتهم ، او لمتابعة سياستهم ، التي اذا تواضعنا في التعبير ، اكتفينا بالقول ، انها سياسة لا تنطوي على شيء من الحكمة والوعي . هو الاستهتار ، يتجلى في نظرة الحاكم للمحكوم ، وهو الخنوع ، ومركب النقص ، يتجلى في لامبالاة الشعوب .

وفي فترة هذا الانتظار الممضّ ، يوالي الحكام ، — ما غيرهم — زهوهم ، واصطناع مواكب المجد حولهم ، كما يوالون استهتارهم

21

بالشعب وامانيه ، مستعينين « بمورفين » السياسة ، يخدرون به الافكار والابصار ، جاهلين او متجاهلين ، فتح الله بصيرتهم ، ان الادمان على التخدير ، يعقبه الجنون .

وهكذا بين حكومات ، تستخف بمسؤوليتها ، وبين شعب لا مبالٍ ، نبقى اعتذاريين ، نخشى المسؤولية ، ونستبعدها عنا ، لنلقيها على الغرباء ، والغرباء يهزأون بنا ، وليس طبيعياً ، الا يسخروا منا ، ما دام فردنا لا يهمه الا نفسه وعمله ، وتجارته ورفاهيته ، وما دام شعبنا ، مغرق في التواكل ، وما دامت حكوماتنا ، لا يهمها من امر الحكم ، غير زهوٍ زائل ، ومجد باطل .

الفصل الثاني

اسباب الفاجعة

كثيرة هي اسباب الفاجعة ، منها ما كان مباشراً ، ومنها غير المباشر . واذا نحن خصصنا القسم الاوفر من هذا البحث للاسباب غير المباشرة ، فلانها بنظرنا ، هي الاصل ، وما الاسباب المباشرة ، سوى نتيجة محتومة لها .

لقد خضنا معركة فلسطين ارتجالا ، دون ان نهيء من الوسائل والامكانيات ، ما يكفل لنا كسبها . لقد كانت اهدافنا ونوايانا ، متباينة ، لا بل متباعدة ، بينما كان للخصم ، هدف واحد . وعندما كانت جهودنا غير متناسقة ، كانت جهود الخصم ، على الرغم من اختلاف وجهة نظر احزابه في الشكل دون الجوهر ، موحدة ومتراصة . لقد استهنا بقوة عدونا ، فاستكنا الى التفاؤل ، وكانت الحكومات ، تعمد الى اخفاء الحقائق عن الناس ، مخافة ان تكشف الحقيقة ، عن النقص في اعمال الحكومات . لقد تقاعسنا عن تهيئة الامدادات والاعتدة ، والاسعافات الصحية والطبية ، وراء حجج واهية ، كالفقر — دائماً مركب النقص — وغلق ابواب الاستيراد ، انما يكذب الذين يقولون اننا فقراء ، كما يريد الاسياد ، ان يقولوا

عنا ، اما قفل باب الاستيراد ، فما كان ، الا بسبب خضوعنا لسياسة الغير ، ومع هذا من ينكر اندفاع جيوشنا ، في بدء المعركة وضربها الخناق على « اسرائيل » وقواته ، يوم وصلت جحافلنا ، على ابواب عاصمته ، وكادت تشطر قوات العدو الى شطرين ، ثم هبط الوحي ، فسكب الماء البارد على منظمي المعركة ، وعقدت الهدنة الاولى ، اجابة لرغبات ، لا تمت الى مصلحتنا بصلة ما ، تلك الرغبات ، التي اخذتنا بالتعليق والتمويه ، تحت ستار المحافظة على السلام العالمي ، فانبرى اقطابنا ، الى التبجح بالشهامة العربية ، والمثل الانسانية ، واخذتهم الغيرة على السلام ، فاوقفوا القتال ، كأن سلام العالم ، يضمنه وقف القتال في فلسطين فقط ، وكأن ملاحم الصين ، ومعارك اليونان ، ومخاصمات برلين ، وثورات فرنسا وايطاليا ، وحرب اندونيسيا ، ومهاترات هيئة الامم المتحدة ، كأن هذه كلها ، لاعلاقة لها بالسلم العام .

سل من شئت ، في قبول الدول العربية للهدنة الاولى ، اجابك بمرارة وألم ، انه خضوع لسياسة غريبة ، لا تضمر الخير للقضية العربية ، وانه لدليل قاطع على عدم انسجام سياسة هذه الدول ، وان القبول بالهدنة لم يكن من وحي الدوائر العربية ، بل من وحي دوائر دولية ، خارجة عن دنيا العرب ، وقد يذهب البعض الى القول بانه اكثر من خطيئة ، انه خيانة .

من ذا الذي يدّعي ، ان القبول بمشروع الهدنة الاولى ، لم يكن اقراراً بالفكرة التقسيمية ، التي اقرتها الجمعية العمومية للامم المتحدة ، ذلك القرار ، الذي ربحت به الصهيونية الجولة الاولى في معركة فلسطين فاكسبها العرب ، بقبولهم الهدنة معها ، الجولة الثانية ؟ ألم يكن نزول العرب على ارادة « وسطاء الخير » اعترافاً ضمنياً بدولة

اسرائيل؟ ان مبدأ الهدنة، بين طرفين متحاربين، معناه ان لكل منهما حقاً في سبب النزاع بينهما ، ومعناه ايضاً ، ان وسطاء الهدنة ، ينظرون الى الطرفين المتنازعين ، نظرة متساوية ، فمن ذا الذي استطاع ، باعجوبة سحرية، ان يغير رأي السادة العرب ، وهم الذين انكروا على الجمعية الاممية قرارها ، وكالوا الشتائم والاتهامات للذين صاغوه ، وللذين ايدوه ، واعلنوا على رؤوس الاشهاد ، انهم لن يغمدوا السيوف قبل ان يرموا بآخر صهيوني في البحر ، فاذا بهم اليوم ينزلون على مشيئة الذين وضعوا قرار التقسيم انفسهم ، فيرجعون عن عزمهم ، الذي اوهموا به الارض والسماء ؟

ان الهدنة الاولى كانت فشلاً سياسياً عربياً ، هذا اذا لم نجار القائلين ، بان قبولها من الجانب العربي ، وضع الذين قبلوا بها ، ورضخوا لاحكامها ، موضع الشبهة . عشرة ايام ، تخلص فيها الصهيونيون ، من ضغط الجيوش العربية المتحمسة ، وراحوا يعدون عدتهم لاستئناف القتال ، بجهود جبّارة ، تساعدهم فيها جهود مناصريهم من الدول ، بينما انصرفت السياسة العربية الى عقد المؤتمرات ، ومتابعة الاجتماعات والمباحثات ، لتفسح المجال لجدلٍ بيزنطي بين الشركاء ، ما اسفرت الاّ عن اضعاف الروح الحماسية ، التي تجلّت في بداية النضال ، فلم يستأنف القتال بعد انصرام العشرة ايام ، حتى ظهر انه لم يكن بدّ من وقفه للمرة الثانية ، نزولا على اوامر هيئة الامم ، وتداركاً للواقع المفجع ، الذي فوجئنا به عندما شرّد اخواننا عرب فلسطين ، وهاموا على وجوههم ، في الاقطار العربية الشقيقة ، ليخلقوا مشكلة جديدة ، كادت تطغى على المشكلة الاساسية .

ولا بدّ لنا من مصارحة «الاقطاب» ان سياستهم لم تكن سياسة

قوية ، وهل من المعقول، ان تكون على غير ما هي عليه ، مادامت مستمدة من مطامع مختلفة ومتباينة ، منها ما كان شخصياً ، في سبيل عرش ، تسانده دولة كبرى ، ومنها ما كان مصلحياً ، في سبيل نقط تتاجر به دولة كبرى ثانية، ومنها ما كان اقليمياً ، مردّه توسع نفوذ او سيطرة اقتصادية ، ومنها ما كان الدافع اليه ، خشية وثبة شعبية ، تقضّ مضجع الآلهة ! لقد ادرك ساسة الدول الكبرى ، صاحبة النفوذ في الشرق ، هذا التباين في المطامع ، فافادوا منه اية افادة ، وقلبوا للعرب ظهر المجنّ ، ما دام العرب لا يشكلون خطراً على سياسة دولهم ، وما دام العرب ، غارقين في سياسة تلك الدول ، دون سؤال ولا مساومة .

لن نطيل البحث ، في اسباب الكارثة المباشرة ، لنتركها للذين يريدون ، ان يتلهوّا بها ، او للذين يريدون ان يحمّلوها، دون سواها مسؤولية النكبة . ان رأينا مخالف لرأي اولئك ، اذ نحن نعتبر الاسباب غير المباشرة ، اساساً ، وكلما ذكرنا من اسباب ، كالخطأ في السياسة ، والنقص في التهيئة ، والخلافات بين الزعماء ، والانقياد الاعمى لسياسة دولية خاصة ، كل هذه ، بنظرنا ، اسباب طارئة ومحتومة ، لاوضاعنا الاجتماعية ، ومذاهبنا التربوية ، وعدم تقديرنا ، للقيم الخلقية والقومية والانسانية . ولذلك افسحنا للاسباب غير المباشرة ، القسم الاوفر من هذا الفصل .

■

قبل الاسهاب في شرح الاسباب غير المباشرة ، اريد ان يرسخ ، في اذهان بني قومي ، ان هذه الاسباب ، ليست ما يسهل ازالتها ، في امدٍ قريب . لقد عمل الزمن على تثبيتها وتقويتها ، فيجب ان

تتحالف مع الزمن ، على التخلص منها ، متذرعين بالصبر والثبات ، والعناد ، آخذين عن « كيلة تشرتشل » (*) التي نجحت ، حيث اخفق تسرع وشجاعة هتلر وموسوليني .

وليست الاسباب التي سأبحثها ، هي التي ادّت بالعرب الى كارثة فلسطين وحسب ، انما هي اصل كل البلايا والكوارث ، التي تتخبط فيها دنيا العرب ، وتفقدها المكانة التي كان يجب ان تكون لها في العالم الجديد . ان كارثة فلسطين يجب ان تكون درساً للعرب ، على مواجهة مشاكلهم العامة ، قومية كانت أم ثقافية ، أم اقتصادية أم اجتماعية . فاذا لم ننظر الى كارثة فلسطين كجزء من كلٍ ، واذا بقينا ننظر الى قضية فلسطين كقضية مستقلة عن غيرها من القضايا العامة ، نخسر قضية فلسطين ، ونظل في مؤخرة الامم الحيّة .

وانا اجيز لنفسي القول ، ان الجهل هو في رأس الاسباب التي تعرقل جهادنا كأمة . ولا اقصد بالجهل افتقارنا الى التعليم المدرسي ، مع ما لهذا الافتقار من اهمية قصوى ، انما اقصد الجهل في اوسع معانيه ، كضيق آفاق المعرفة ، وتقييد الفكر في نطاق محدود ، وحصر مدارك الشبيبة ضمن دائرة محاطة بالتقاليد الدينية والاجتماعية والرجعية ، وكبت روحها الوثابة ، وعدم العناية بالفن ، وعدم تطبيق

(*) اسطورة تروى عن اجتماع « تشرشل » و « هتلر » و « موسوليني » حول حوض من الماء ، تسبح فيه سمكة كبيرة ، ابتغى الثلاثة التقاطها ، فغطس هتلر ، ثم موسوليني ، وانهكهما التعب ، فما استطاعا التقاطها . وعندما جاء دور تشرشل ، استعان بكيلة وعمد الى تفريغ المياه بها ، وثابر في عملية التفريغ رغم هزء رفيقيه ، الى ان افرغ الحوض من الماء ولم يعد بمقدور السمكة ان تفلت من قبضته .

القواعد العلمية والفنية في حياتنا اليومية ، ومناهجنا العملية ، واكثر من ذلك حرمان المرأة من فوائد العلم ،واغلاق باب التبسط الفكري في وجهها .

في العالم العربي حذرٌ من حضارة الغرب ، يبلغ احياناً حدّ الكراهية . يرى العرب في الحضارة الغربية افتئاتاً على الاخلاق ، وتحدياً للشرائع الدينية المنزلة ، وقضاءً على التقاليد العربية والشرقية فيتنكرون لها في نفس الوقت الذي يشون فيه بطيبة خاطرهم ، في قوس الدول التي ترفع لواءها . هم يقاومون مدنية الغرب التي ترفع من شأن المرأة وتفتح لها الآفاق ، وتفصل الدين عن الدولة ،وتعمل على رفع مستوى الحياة ، في مجال الصحة والاجتماع ، ونبذ روح الاقطاع ، ولكنهم لا يرون منكراً، السير في ركاب دول الغرب ، في حقل السياسة . وماذا يهم الغرب اكثر من ان يبقى العرب في قومهم ، بل يرى الغرب ان من مصلحته ان يماشيه العرب في سياسته ويحتفظوا بجاهليتهم ، ولا يفتحوا اعينهم للنور ، كي لا يفتح النور بصائرهم .

لا ننكر ان الدول العربية ، كلٌ على قدر تفهمها للتطور ، تبذل الجهود ، في حقل العلم ، وتعميم المعاهد العلمية ، ولكن هذه الجهود ، تفقد كثيراً من قيمتها ، اذا اقتصر العلم ، على درس الحساب ، والجغرافيا ، والتاريخ ، واللغة ، وما تفرضه المناهج المدرسية ، فالغاية من العلم ، توسيع مدارك الانسان ، وفتح آفاق جديدة واسعة امامه ، تجعله خليقاً بالحياة ، مقدراً لقيمها المعنوية والروحية ، محترماً عقائد الغير ، حتى ما كان منها لا يتفق مع عقيدته ، باحثاً عن الحقيقة ، بروح العدل الانساني والانصاف ، غيوراً على حق غيره ، غيرته على حقه ، ضنيناً بحصته من الدنيا ، دون ان

ينكر على الآخرين ، حصتهم ، والغاية من العلم ايضاً ، نبش مكنونات الطبيعة ، واستخراج مكنوزاتها ، والافادة منها في حياته العملية . وماذا تستفيد ناشئتنا ، من دروس الفلسفة والاجتماع ، والاقتصاد ، اذا قامت بوجهها العراقيل التقليدية ، لتجعل منها ، حرفاً ميتاً ؟ وما فائدة العلم ، اذا لم يتخذ نبراساً ، للتكوين القومي ، والاجتماعي ، والخلقي ؟ وماذا يفيدنا علم الصحة ، اذا اهملنا تطبيقه في بيوتنا ، ومدننا ، وقرانا ، ومعاملنا ، وحروبنا ؟

عندما احتدمت معركة فلسطين ، تنادت الاوساط المتعددة ، للمساهمة في الدفاع ، عن هذه البقعة العربية العزيزة . وكانت احدى المهمات الرئيسية ، فتح المستشفيات لمعالجة الجرحى ، وتشكيل بعثات للعناية بالصحة ، ومنع الاوبئة ، واسعاف المنكوبين ، فاشتركت مع العاملين في هذه الناحية . واني اذكر بالم ، حديثاً مع كبير ، ممن يطلقون عليهم لقب اقطاب ، عن الجهاز الطبي والصحي ، الذي لا غنى لنا عنه في الحرب ، وعن وجوب بذل المال لهذه الغاية ، لا انسى انتفاضة « القطب » الكبير ، بزهوه وخيلائه ، بتصنع الوطنية والبطولة ، ليلقي على امثالي ، عظة حماسية ، يخلص منها الى القول « نحن انما نريد مدافع ، ورشاشات ، وبنادق ، وخرطوشاً ، وانت يا اخي تطلب شاشاً وقطناً ، ان الحرب لا تربح الا بالسلاح ، السلاح ، السلاح . » « قطب » جاهل ، لم يكن مع الاسف ، غير واحد من كثيرين .

ليست الوطنية ، حماساً وتعصباً وحسب ، انما هي وعيٌ ، وتقدير لقيمها ومقوماتها . ان الوطنية التي تبنى على التعصب والحماس فقط ، لا تلبث ان تضعف وتخمد . متى رأت جماهير الناس ، ان الوطنية الحماسية ، لا يستغلها غير الطبقات الحاكمة والخاصة ، فمن المحال الافادة

من وطنية الشعب ، اذا ابقينا على جهله ، وتخديره بالكلام المعسول والوعود . ان شعباً ، يستثمر كبيره صغيره ، ويترك قروبّوه على الفطرة، ويرقص اغنياؤه على قبور الفقراء، ويستبد حكامه بمحكوميه، ان شعباً تحرمه حكوماته حرية الحياة، وحرية العلم ، وحرية العمل، وحرية القول والرأي ، ان شعباً لا تضمن له حكوماته العيش والصحة والكفاف ، ان شعباً تتحكم فيه شهوة الحكام ، ويستبد به الاقطاعيون ، ان شعباً يسود فيه الجهل ، ويتولى مقدراته الجهلاء ، ان شعباً هذا شأنه ، لا يركن الى وطنية ، مهما اصابه من المحن ، ومهما القي عليه من الخطب ، وما نفخ فيه من روح الحماس والبطولة .

ان عالم اليوم عالم علم وفن . فلنأخذ بهذه الحقيقة اذا اردنا ان نكوّن شعباً ونخلق امة .

■

والسبب الثاني لكارثة فلسطين ، ولكل كوارث العرب ، تغلغل الحسّ الديني في حياتنا ، وتمكنه من كياناتنا ، وسيطرته على مشاعرنا وتفكيرنا ، فلا نستطيع ان نأتي عملاً قومياً ، او اجتماعياً ، او ثقافياً ، الا وكان للدين دخلٌ فيه . والمهم في الامر ، ان هذا لم يعد شعوراً دينياً صرفاً ، بل اصبح تعصباً ، متغلغلاً بعقائد غيبية ، لو افسحنا مجالاً للعقل في تفهمها ، لظهر لنا بطلانها من الاساس . ولكن ما حيلتنا بشرق لا تزال الروحانية تتحكم بمقدراته .

ان من سوء حظ هذا الشرق ، ان الديانات الثلاثة نبتت جذورها في ارضه . ومن سوء حظ هذه الارض، ان الحرّاث الذين ورثوها ، اساؤوا حراثتها ، حتى كادت تجدب من الفضائل التي

قامت على اسسها الديانات . فالرسالات الدينية ، التي بشرت بالسلام والمحبة ، والتي حاولت ان تربط الانسان بآله خالق مبدع ، لا يخطىء ، ولا يحقد ، ولا ينظره احد، ان هذه الرسالات ، قد انزلت عن مستواها المثالي الرفيع ، لترتدي طابعاً وجودياً ، يتمثل بشرائع وعقائد ، لا ترتكز كلها على فضيلة الرسالة الدينية ، فكان من جراء ذلك استخدام الروحانية ، لعكس الغاية ، التي وجد الدين من اجلها .

قد يختلف الباحثون ، فيما اذا كانت الرجعية ، هي التي تغذّي الحسّ الديني، او اذا كان الحسّ الديني ، هو الذي يغذّي الرجعية. ولكن ما لا يختلف به الباحثون ، ان الحسّ الديني والرجعية ، يمشيان يداً بيد ، ما دام التفاعل الفكري والعلمي مستبعداً في كلا الحالين .

لقد اخذ الغرب ، من جذور الديانات ، التي نبتت في ارضنا ، فاينعت واثمرت هناك ، اكثر مما اينعت واثمرت في الشرق ، ذلك لان حراثها في الغرب ، تعهدوها بعناية توفرت فيها الدراسات العلمية ، ولم تتركها لحكم الغيب والقدر .

وهكذا كان الشرق ، مطلق الديانات الآلهية ، وكان سجينها في آنٍ واحد .

ومما يؤسف له اشد الاسف ، ان الحسّ الديني في الشرق ، يرتدي طابعاً طائفياً ، تختلف فيه اهداف هذه الطائفة عن تلك ، وتتباين ميول ابناء الوطن الواحد ، باختلاف طوائفهم ، وفروع طوائفهم ، فطغت الفكرة الدينية ، لا بل الفكرة الطائفية ، على كل فكرة سواها ، وهنا يفهمون الدولة بهذه العقلية ، ويقيسون

القومية ، على قدر موافقتها للطائفة التي ينتسبون اليها ، فلا غرو اذا رأينا التناقض القومي في وجهات النظر المختلفة .

واكثر ما يتجلى هذا التناقض ، في لبنان ، بالرغم من كونه اسبق الدول العربية تقدماً بمجموعه . ذلك لان النسبة العددية ، من طوائفه متقاربة ، وكلٌ منها تبغي التفوق على الاخرى ، ومن هذا نشأت فكرتان ، فكرة تقول بعروبته ، وفكرة تحذر العروبة ، خشية مما تسبغه عليها العامة ، من اصحاب الفكرة الاولى ، من الطابع الديني .

ليست العروبة بنظرنا ، دولة وحكماً ، انما هي حضارة ، تجمع بين الشعوب العربية كلها ، اكانت هذه ، تعيش في لبنان ، او في العراق ، او في دمشق ، او في بقية الاقطار العربية ، وما هذه المشادة الكلامية عنها ، الا جدلٌ ، يسيء الى قضايانا ، ومن جملتها قضية فلسطين . فعندما يدور في خلد المسيحيين ، ان دفاعهم عن فلسطين ، انما يقومون به دفاعاً عن جارٍ فقط ، او خوفاً من خطرٍ قد ينتقل اليهم ، فانهم بذلك يفسحون مجال الحذر من نياتهم . ومتى دار في خلد المسلمين ، ان اسلامية فلسطين ، جزءٌ لا يتجزأ من عروبتها ، وعندما يرى هؤلاء ، في مناصرة الدول الغربية المسيحية للصهيونية ، غضاضة على مسيحيّي الاقطار العربية ، وعندما يهبون بالعالم الاسلامي ، الى الجهاد المقدس ، مع ما في العالم الاسلامي ، غير العربي ، احياناً من الدلائل ، على عدم تحسّسه بالقضايا العربية ، فانهم بذلك يفسحون مجال الحذر ، للمتعصبين من المسيحيين ، فيجد الحوازج في كل هذه الاحوال ، باباً مفتوحاً للدسّ ، وبث سموم التفرقة ، بين ابناء الوطن والعشيرة الواحدة .

هو الحسّ الطائفي ، علة الشرق ، مسيحيّه ومسلميه ، ليت

الواعين من ابناء الشرق العربي ، يدركون ان ما من خطر على البلاد العربية ، وعلى العروبة نفسها ، اكبر من هذا الخطر ، وما من سلاح ، نعطيه لاخصامنا والطامعين بنا ، امضى من هذا السلاح!

نحن ابعد ما نكون ، عن الدعوة الى الكفر بالله وبدياناته ، انما نربأ بالشرق الواعي ، ان يكتفي بتسليم مقدراته للروحانية ويستكين الى التواكل والاعتماد على القدر، ونحن نبرأ من روحانية، تقودنا الى الكسل ، ونبرأ من ديانات تسمح بالتناحر والبغضاء، ولا يعمل اولياؤها لنشر فضيلة الرسالة الدينية ورسالة المحبة والسلام .

لا نقصد من شجب الطائفية تعرضاً للدين باعتباره رسالة سماوية ، تهذب الروح، وتهدف الى المثل العليا. ولكن الدين في نظرنا شيء ، والعقائد شيء آخر . اما الذين يقولون ان الخروج عن هذه العقائد والمظاهر ، جنوح الى الكفر ، انما هم الكافرون ، فليس كافراً من ينعى على الذين يزجون الدين في امور الدنيا ، عملهم وادعاءهم الاسبقية في معرفة ارادة الخالق ، انما الكافر من يحاول احتكار هذه المعرفة ، ويعمد الى ايهام الناس ، انها لا تأتي الا على يده ، وبد الذي يقولون قوله ويعملون بتعاليمه ، وما دام الله هو الواحد الاحد في جميع الاديان، فمن الكفر القول بتخصيصه، وتنويع وحيه ، وايثاره هذا او ذاك من المختارين ، فاذا كان هناك تباين في الاجتهاد ، بين فلاسفة الدين والفقهاء ، فالاجتهاد الفقهي لا يبطل وحدانية الخالق ، وبالتالي لا يضع موضع الجدل وحدانية نواياه الآلهية ، تجاه جميع مخلوقاته .

لقد سبقنا العالم المتمدن ، الى تفهم هذه الامور ، والاخذ بها ،

ونحن ما زلنا مكتفين وقانعين ، بترديد الادعاء ، اننا امة متقدمة راقية ، دون ان نعمل بمفاهيم التقدم العلمي ، حاسبين ان الاكتفاء بتلقي العلوم ، على مقاعد الدراسة ، هو كل ما يطلب ، لوضعنا في مصافّ الامم الراقية . فاذا لم نسعَ الى تطبيق المفاهيم العلمية ، في نواحي حياتنا كافة ، واذا بقينا على تنكّرنا لعلمانية الدولة والحكم ، ووجوب تطبيقها في انظمتنا الاجتماعية والسياسية والثقافية ، ظلمنا حيث نحن ، بينما العالم يمشي ويتقدم .

هذه امنيتنا لدنيانا العربية ، وهي امنية كل الذين نحترم نواياهم ، ولا نشك باخلاصهم .

■

والسبب الثالث للكارثة ، عدم الاستقرار الداخلي في الدول العربية ، واستهتار الحكومات والشعوب بالانظمة والمثل العليا .

قبل الحرب العالمية الاولى ، كانت البلاد العربية كلها ، تحت الحكم العثماني ، ثم انتقلت في فترة السلم بين الحربين العالميتين الى نوع من الحكم ، غريب ، اطلقت عليه « عصبة جنيف » اسم استقلال ، مربوط بانتداب احدى الدول الكبرى ، على كل دولة عربية مستقلة . حيلة ابتكرها رجال السياسة الدولية ، ليخدعوا بسطاء القلوب من الشعوب المستعبدة ، الذين صدقوا ان الدول الكبرى ، اشعلت الحرب ، دفاعاً عن حريتهم ، وحقهم في تقرير مصيرهم . وهكذا بقيت الدول العربية وشعوبها ، بحالة ارتباك ، طوال ربع قرن ، الى ان نشبت الحرب العالمية الثانية ، التي اشعلت نارها ، هي ايضاً ، بحجة المحافظة على حرية الشعوب . مسكينة الحرية ، كم من الجرائم اقترف باسمها ، وكم من الدماء سفكت على ذمتها . وفي حالتي

الاستعمار والانتداب ، كان همّ الدول المنتدبة والمستعمرة (بكسر الميم) ان تحفظ لنفسها السيطرة والسيادة ، فلم يكن لها بدٌ ، من تسيير الحكم والمصالح ، لما يخدم نواياها ، اما بواسطة رجال من رجالها ، شربعة الاستعمار ، او بواسطة رجال وطنيين ، حيلة الانتداب ، تعنى هي باقامتهم حكاماً ونواباً وموظفين . فكان من الطبيعي في الحالين ان تبقى نظم الادارة والحكم والتوجيه ، مستوحاة من ارادة صاحب الكلمة الاولى ، ومشفوعة برضاه وتأييده . ومن الحبل الاعتقاد ، ان صاحب الكلمة الاولى ، وهو الطامع الغريب ، يخلص النية اخلاصاً تاماً ، او يرغب في استقرار تقدمي متين ، في بلاد يطمع بخيراتها ، او في ستراتيجيتها ، استقرار قد يفقده مركزه الممتاز فيها ، لما يخلقه في اهلها ، من حسٍّ وطني ، ووعي سياسي واجتماعي واقتصادي .

وكان المفروض ، ان ينظر الى زوال الانتداب ، بعد الحرب العالمية الثانية ، كنقطة انطلاق ، تهيب بالشعوب العربية ، الى الأخذ بمقومات الاستقلال الصحيح ، في الدول العربية ، وكان من المفروض ايضاً ، ان تعتبر السلطات الوطنية بما مضى ، فتعد العدة ، لجعل الاستقلال نعمة ، يتعشقها المواطنون ، يتمتعون بخيراتها وبركاتها ، وينعمون بما تسبغه عليهم من حرية ، وثقة ، واطمئنان ، وكان من المفروض ايضاً وايضاً ، ان تتبدل اساليب الحكم والادارة في الدول العربية ، فلا ينظر الحكام الى الحكم بنفس المنظار الذي كان ينظر منه الحكام السابقون ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، وكيف يحدث ، ما دام قواد السفينة بقوا هم انفسهم ، منهم من احتفظ بسلطة اولاه اياها الاستعمار العثماني ، ومنهم من والوا الانتداب الفرنسي والانكليزي ، واخلصوا له ، فرفعهم الى المرتبة الاولى ، وظلوا

ينعمون بما ورثوه عن اولياء نعمتهم المنتدبين ، فكانت النتيجة ، استمراراً في عقلية الحكم القديمة، وجموداً في تفهم الحكام والمحكومين للتطور ، ومماشاة العالم الجديد ، والانظمة الحديثة .

ليس من ينكر ، ان في الدول العربية عللاً ، كل منها على حدة تكفي لتقويض دولة ، فكيف بها اذا اجتمعت . ومما يؤسف له جدّ الاسف ، ان اصحاب القول والرأي في هذه الدول لا هم يعملون لشفاء هذه العلل ، ولا هم يفسحون مجال العمل للراغبين في شفائها. فالاقطاعية الموروثة لا تزال متغلغلة في صميم كياننا ، والحسّ الديني والطائفي ، يقف سداً منيعاً في وجه التعاون المرغوب ، والمحسوبية عقبة كأداء في سبيل الاصلاح ، والانانية الفردية والعائلية تدغدغ عقول الحكام واصحاب النفوذ ، وشهوة الكسب الفردي تجعل المصلحة العامة رهناً بالمصلحة الشخصية ، كل هذه الامور وغيرها مما سهونا عن ذكره ينشر الفوضى في الادارة والحكم والمعاملات ، ويزيدها اعوجاجاً ، استهتار المسؤولين بالمصالح العامة ، وتترك النفوس بخيبة مريرة .

عندما كنا نرزح تحت وطئة الاستعمار والانتداب ، كنا نكتفي بلوم رجال الاستعمار والانتداب ، وعندما زال هذان الكابوسان ، اكتفينا بتحويل اللوم عن الاجانب لنلقيه على رجال الحكم الوطنيين. خطيئة نفسانية ، غذاها فينا ميلنا الى التواكل ، ومركب النقص ، وعدم وجود رأي عام بوسعه فرض رغبته على المسؤولين . ان رجل الحكم ، نادراً ما يستوي ويستقيم اذا لم يشعر بوعي الرأي العام ، وباستعداده لمحاسبته اذا اخطأ او اساء ، وانا وانت ايها القارىء العزيز نعلم ان اكثر الرجال الذين اوجدتهم الظروف وقوة الاستمرار على مقدرات الدنيا العربية ، هم من ابناء المدرسة القديمة ،

صقلتهم تعاليمها وتربوا عليها ، ومن المحال ان يتحولوا عنها ، بين ليلة وضحاها ، فالعقلية ليست بنت الطفرة ، بل هي وليدة التطور . هذه حقيقة عملية طبيعية ، فلماذا نحاول تجاهلها ؟

ان العهد الجديد يتطلب عناصر جديدة ، لا يدغدغها الارث القديم بمحاولات رجعية مختلفة كالغيرة على الطائفية والدين ، والمحافظة على التقاليد ، وتوطيد زعامات لا كفاءة لها ، فكيف يكون هـذا العهد عهداً جديداً مادامت انظمته مستوحاة من العقلية القديمة ، وما دام يقوم عليها اناس ولدوا وشبوا وترعرعوا على قيمها وذاقوا حلاوتها ، واذاقوا الناس العلقم من مرها .

اذن ليس الا ابناء المدرسة الجديدة يستطيعون اقالة البـلاد من عثراتها ، وتقويم انظمتها ، ونسف عقلية الحكم البائدة ، واستبدالها بعقلية تقدمية جديدة ، ليصير للنظام قيمة عندنا ، وليتبوأ العدل منزلة سامية في قضائنا ، فلا يبقى رهينة السياسة الغاشمة ، وليتحول نظامنا الاجتماعي من نظام الطبقات ، كما هو الآن ، الى نظـام ديموقراطي صحيح ، ولتكون ثقافتنا وطنية ، قومية ، تقدمية ، تقوي في ناشئتنا القيم المعنوية ، وتجمعها في صعيد واحد ، لا تفرق بينها الاديان ، ولا تقضي على وحدتها الغايات والحزازات العقائدية والفوارق الاجتماعية .

انا لا اريد ان اتجاهل الصعوبات التي ستعترض نضال ابناء المدرسة الجديدة . فجميع القوى الرجعية ستتحـالف للدفاع عن كيانهـا ، وستسعى لاظهار هذا النضال بمظهر الطفرة والاخلال بالامن العام ، والشغب والثورة على الانظمة وعلى قدسية الآلهة . وانا لا استبعـد ايضاً ان يسرع من الاوساط الدولية الاجنبية ، من يستهويه بقـاء الرجعية الوطنية وخدمتها له ، فيتنطح لمساعدتها ، منتحـلاً لنفسه

اعذاراً مثالية ، او استراتجية ، خشية على مكانته ونفوذه ومطامعه ، من الحركات التحررية . ولكن ، اية يقظة تحررية لم توصم بهذه الوصمات من قبل المتربعين في كراسي المجد والرفاه ، الذين لا يهمهم الا دوام سلطانهم ، وضمان الخيرات لهم ولمؤيديهم ، ولو سخروا جميع المبادىء الانسانية والقوى المادية التي تخولهم اياها سلطتهم ، لاخماد كل يقظة يخشون منها على مطامعهم وشهواتهم .

انا لا ادعو الى ثورة مادية ، فانا ضنين بالدم العربي يُهرق على يد العرب انفسهم ، غير اني ادعو الى ثورة فكرية تساهم في بناء هذه الدنيا على اسس جديدة ، مكونة من العلم والنظام ومعرفة الواجب والتقيد بالحق ومحاربة الباطل ، أكان هذا في قصور العظماء او في مسلك الضعفاء أو في معاملة الناس للناس . واذا خصصت بدعوتي الشباب ، فلاننا نحن الذين جاوزنا طور الشباب ، لا ندرك ، كلنا أو اكثرنا ، هذه القيم الروحية التي بدونها لا تقوم الدول ولا تحيا الامم ، وان ادركناها لا نقدرها قدرها وهيهات ان يفقه ابناء الجيل القديم قيم الجيل الجديد .

ان عدم استقرار الحالة الداخلية في كل من الدول العربية ، ان الفوضى الناشبة اظفارها في الادارات ، ان الفرق الهائل في مستوى المعيشة بين طبقة وطبقة ، ان استهتار الحكومات بالقوانين والانظمة واستهتار الشعوب بمحاسبة الحكومات ، ان هذه الامور كلها ، من شأنها اضعاف القوى ، فلا غرابة اذا استطاعت اية جبهة غريبة منظمة ومؤمنة ، كالصهيونية ، ان تستهين بالعالم العربي كله ، فتستغل دعايتها في العالم الواسع لتظهر العالم العربي بمظهر المتأخر ، وتؤلب السياسة العالمية ضده .

ان هذه النقاط الضعيفة فينا ، تشكل الخطر الاكبر علينا ، وهي

لعمري ما تستوجب المعالجة والتقويم ، قبل معالجة اي خطر خارجي اما كيف نواجهها و كيف نعالجها ، فهذا ما سنبحثه في الفصل الثالث

■

والسبب الرابع للحالة الراهنة ، فقدان الثقة ، بين الشعب واوليائه .

ان اخطر ما يهدد كيان الدول ، فقدان الثقة من نفوس الناس وان اكثر ما نخشاه على الدول العربية ، هذا الذي نلمسه في الرأي العام من خيبة وتشاؤم وقلة ثقة بآلة الحكم ، وبالوعود الذي يدغدغه بها الحكام من جهة ومناوئوهم من جهة ثانية .

سل من شئت عن الحالة العامة ، اجابك بدون تحفظ ، ولا تردد انها سيئة ، ولن تتحسن ، فيأتيك بالف برهان وبرهان ، وانت لا تستطيع مجابهته ولا اقناعه ، لانك انت تجادله بالآمال والخيال وهو يجادلك بالواقع ، واذا مشيت معه الى آخر طريق الجدل وقلت له ان الرجال يزولون، وقد يخلفهم من هم احسن منهم ، تطلع اليك بقلب الشفاه وراح يستعرض الذين اتوا ، والذين قد يأتون فلا تلبث ان تشعر بطغيان الروح الانهزامية والقرف العام .

خذ كل دولة من الدول العربية ، فلا ترى الا استياءاً عاماً يبلغ احياناً حد الكراهية والحقد على الذين يتولون الحكم ، وعلى الذين يزاحمونهم عليه . فالحكام ومزاحموهم يشكلون طبقة ، مهما تباينت آراء افرادها ، ومهما اختلفت نزعاتهم ، فانهم متفقون في النهاية على امر واحد ، وهو تقاسم الغنائم فيما بينهم والتكاتف ضد أي خطر قد يلوح لهم من يقظة الشعب ووعيه . الا تراهم عند اشتداد الاحداث يتنادون الى اتحاد وطني ، ويصورونه للناس اتحاداً بينهم كأن الجمع

بين الزعماء المتباعدين هو كل ما تحتاجه البلاد للخلاص ؟ اتحاد كاذب لا يقصدون به سوى حمايتهم وبقاء سلطانهم .

وقد اعطت معركة فلسطين الدليل القاطع على انعدام الثقة من النفوس . فمنذ ان احتدمت هذه الحركة ، ورجالات الدول العربية تدلي بالتصريح تلو التصريح، على التضامن فيما بينهم في الوقت الذي كان يشعر فيه الشعب بالعكس. وما ان رفعت القضية الى هيئة الامم المتحدة ، حتى سارعت وفود الدول العربية الى هذه الجمعية ، فكانت تمطرنا بوابل من التصريحات عن اطمئنانها للموقف الى ان زالت الرغوة عن الزبد ، فظهر الموقف كما هو ، واذا به بعيد كل البعد عن الاطمئنان ، واذا بالمسرفين بالتصريحات انفسهم ، يتراجعون . وفي كل مرة كان يجتمع المسؤولون ، ليطلعوا علينا ببلاغات مموهة واعدين بانهم ، سيأتون باعمال تهز العالم هزاً ، حتى متى حان الحين الموعود ، انكشف امرهم وعادوا الى المفاوضات والمساجلات ؟ وعندما مشت جحافلنا الى الحرب، قالوا : هي ايام معدودة فندك حصون اسرائيل ونقضي على دولته المزعومة ، فاذا بهم بعد ايام قلائل ، يقبلون الهدنة التي فرضها مجلس الامن ، هذه الهدنة التي تبين انها لم تفرض الا لترسيخ هذه الدولة . وبينما كان رجال الحكومات العربية يتحدون بخطبهم الدول المناصرة للصهيونية ، كان اولئك انفسهم ، يستلهمون سياستهم من دوائر تلك الدول السياسية . وفي اثناء المعركة لم يكن هم المسؤولين غير ستر الحقائق عن الناس ، مستهدفين اولا وآخراً ، استراق ثقة شعوبهم ، رغبة في المحافظة على بقاءهم في مقام القيادة ، فلم تمر الاشهر القليلة حتى اتخمت الشعوب بالتصريحات ومناورات السياسة لتفقد ثقتها ويضعف ايمانها في آخر المطاف .

سئل مرة « كنفوشيوس » عما هي الحكومة الصالحة ، فاجاب :

ان الحكومة الصالحة هي التي يثق بها شعبها . وعندما سئل عما يجب ان تعمله الحكومة لتكسب ثقة الشعب ، اجاب : « على الحاكم اولا ان يطهّر نفسه من اية نقيصة تذله امام نفسه ، ثم عليه ان يطهّر اعوانه ، فيرتاح الى اعمالهم ، ثم عليه وعلى اعوانه ، ان يصدقوا الشعب باقوالهم واعمالهم ، فيعطوا صاحب الحق حقه ، ويقتصدوا باموال الرعية ويعملوا للدولة اكثر مما يعملون لانفسهم ، لايكذبون ولا يخادعون ولا يسرفون ، بذلك تكسب الحكومة ثقة الشعب ».

فاذا طبقنا مفهوم حكيم الصين للثقة ، أيكون بوسع حكومة من الحكومات العربية ان تطمح الى كسب ثقة شعبها ؟ لا حيلة في الاجتهاد على الجواب .

وما يزيد النفس المآ ، ان فقدان ثقة الشعب بحكومته يؤدي حتماً لفقدان ثقته بنفسه وتراخي جهوده وخيبة امله ، والويل لامة معدومة الثقة قليلة الامل والايمان .

■

والسبب الخامس للانهيار العربي ، انعدام التعاون المخلص بين الحكومات العربية ، بعضها مع بعض ، وهو مايقود حتماً الى انعدام التعاون بين الشعوب .

لقد ظهر من سير القضية الفلسطينية ، والمصير الذي آلت اليه ، ان التعاون بين الدول العربية لم يكن كما كان يجب ان يكون . وهذا امر محتوم وقوعه ، ما دام ثمت فروقات جمة بين الدول العربية ، فروقات في مطامع الطبقات الحاكمة ، وفروقات في انظمة الدول المختلفة في جميع نواحيها ، سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية ، أم في نظرة الفرد العربي الى الحياة والفن والمثل الانسانية

ومقاييس القيم الروحية .

لنكن صريحين ، ونتكلم بامثال . ان في العالم العربي اقطاراً تشكل دولا مستقلة يعيش ابناؤها على الفطرة، اكثر من تسعين بالمائة منهم اميون ، يقنعون من الحياة برغيف يابس في يومهم وبفراش داثر في ليلهم ، يتركون مصيرهم بين يدي القدر ، يعيشون على احكامه ، ويموتون على ذمته ، لا يهتمون لدنياهم بقدر ما يهتمون لآخرتهم ، يغمضون اعينهم عن النور لكي لايفتح النور بصائرهم ويدركوا خير الحياة من شرها ، لان اسيادهم يحيبون اليهم الظلمة ، موهمينهم ان ظلمة الحياة وجهلها ، يبعدان عنهم الرذيلة ويقربانهم من الله .

وفي العالم العربي اقطار مستقلة ايضاً ، تعرفت الى سنة التطور واخذت بها ، وامتزجت بالدنيا واكتسبت من حضارتها حتى تطرفت احياناً باتباعها ، وتوسع نظرها الى العلم والفن والروحانية ، وشذ نفر من ابنائها عن المعقول في تفهمهم للمدنية الحديثة ونشدوا الحرية حتى كادوا يغرقون في فوضاها وناقشوا الفلسفة الآلهية وتطرفوا في عقائدهم ، ولو عدّ ذلك نشوذاً منهم على الدين وشروداً عن الحكمة.

وفي العالم العربي تباعد واي تباعد ، في عادات الشعوب ، فما كان منها مألوفاً في هذا القطر ، يستهجنه ابناء القطر الآخر ، في هذا يأكلون باصابع اليدين ويشربون الماء الآسن عباً ، وفي ذاك يأكلون بالشوكة والسكين ولا يشربون الماء الا من قدح بلوري نقي ، في القاهرة وبيروت ، تقام حفلات الرقص والتمثيل والغناء ، وفي الرياض وجده وصنعاء ، وحمص ، وحماه يحرّمون الرقص والتمثيل ، ويرجمون الراقصات . المصري توحشه الغربة ، اذا زار بغداد . والحجازي اذا اتى بيروت او دمشق ، ظن نفسه في نيويورك ،لا هو

يفهم اهلها ، ولا هم يفهمونه. اذا جاب الاقطار العربية مسافر غريب او رحالة ، لا يشعر بانه في عالم واحد لدن انتقاله من قطر عربي ، الى قطر عربي آخر ، لغة واحدة ، تختلف في التعابير ، واللهجة ، وطريقة التخاطب ، اللباس افرنجي في قطر ، وبدوي في قطر ، وعراء فيما خلا مئزر يخفي العورة ، في قطر آخر ، سفور خالع في بعض الاقطار ، وتحجب خانق في غيرها ، يحار الغريب في هذا التفاوت ، في عالم يقال عنه انه واحد .

وفي العالم العربي ، لا يوجد مجتمع عربي ، فالمجتمع الواحد يقوم على عادات واحدة ، او على الاقل ، على عادات متقاربة ومتناسقة وعلى تقاليد واحدة ، وعلى مفاهيم واحدة ، وعلى نظرة متقاربة بين مختلف اقطاره ، الى الروح ، والفن ، والحياة ، وما اخال احداً بوسعه القول ، ان في المجتمع العربي ، اذا صح ان نقول بمجتمع عربي ؛ شيئاً من التناسق او التقارب ، اذا كان لا بد من الاستغناء عن الوحدة . ان في العالم العربي اشتاتاً من مجتمعات ، يصعب التوفيق بينها ، وبالتالي يصعب التوفيق بين معانيها ومراميها ومقتضياتها ، والتعاون الممكن بين الشعوب المتمسكة بها ، والراضخة لاحكامها .

وفي العالم العربي تباعد محسوس وملموس في الانظمة وفي كيفية تطبيقها ، وفي السلطة التي يتمتع بها الحكام ، ملوكاً أو امراء او رؤوساء ، وفي الثقافة والتعليم والمناهج المدرسية ، وفي فرض الضرائب على السكان و كيفية توزيعها ، وفي القضاء والتشريع والقاعدة المتبعة في سن الشرائع والتقيد بها . فبينما نرى القضاء في بعض الدول العربية يخضع للشرع الديني خضوعاً تاماً ، نراه في غيرها مأخوذاً عن احدث الشرائع المدنية . عين بعين ، وسن وبسن ،

والسارق تقطع يده ، قواعد يحتمها البعض ، ويستسيغهـا البعض وينكرها البعض الآخر . حتى في نظام العائلة تباين ، واي تباين. فالتزاوج والمصاهرة بين الطوائف المختلفـة ممنوع قانوناً ، ومخالفتـه احياناً تبلغ الحـدّ الاقصى من العقوبات . ومركز المرأة في العـائلة يختلف في هذا القطر عما هو في القطر الثاني ، ونظام المعيشة متباعد كل البعد . كل هذه الامور والفوارق من شأنها تباعد الاهـداف والغايات وعدم توحيد وجهات النظر في كل نضال عام .

قد يقول بعض المتحمسين ، ان العروبة كافيـة لصهر الجميع في بوتقة واحدة . ولكن ما هي العروبة ؟ هـذا ما سنخصص له بحثاً خاصاً في الملاحق (المدرجة) في آخر الكتاب .

هذا من حيث الفوارق بين الشعوب العربية . اما عـدم تعاون الحكومات ، فهناك اكثر من دليل عليـه . فعندما تجيش المطامع بين الحـكام ، وعندما يطمع اولئك بشعبية يفتشون عليها في نبش حزازات دينية ، وعقائدية ، وشعوبية ، بطبيعتها موفورة في العالم العربي ، وعندما يكيد حكام الدول العربية المختلفة ، بعضهم لبعض ، وعندما تشرد حكومة او حكومات عربية في سياستها الخارجية او الاقتصادية ، وفقاً لمصالحها الخاصة ، دونما نظر الى غيرها ، أيعقل ان يكون اذ ذاك تعاون عربي مخلص موحّد الهدف والغاية ، في قضية فلسطين او غيرها ؟

عندما انشئت الجامعة العربية ، قابلنا انشاءها بالتهليل والتكبير ، واملنا على قيامها الخير لدنيا العرب . واذا كنا نحترص بالحكم على هذه الهيئة ، فلا يسعنا تهنئة القائمين عليها . لقد ظن اقطاب الجامعة ، ان التعاون السياسي وحده هو الذي ننشده منهم ، فقصروا نشاطهم عليهم ، دون غيره ، اللهمّ ما عـدا بعض مؤتمرات عقدت باسم

الثقافة ، خرجت منها الوفود ، كما دخلت ، على تباعد وخلاف ، في نظرها الى الثقافة ، بمعناها الحقيقي . اما الناحيـــة الاقتصادية في الموضوع ، فكأنه من المواضيع الخارجة عن نطاق الجامعة. التجارة المصرية او العراقية، تدخل لبنان بنفس الشروط التي تدخلها التجارة الاميركية والفرنسية والانكليزية ، الفاكهة اللبنانية ، تكسد في لبنان ، لأن مصر لا تجد غضاضة في تفضيل فاكهة « اوستراليا » او « كاليفورنيا » عليها ، السوري يأكل كيلو الخبز بعشرة غروش، واللبناني يأكله بعشرة اضعاف ، لان السوري يبيع ، واللبناني يشتري ، مصر تحار في كيف تصرّف ارزها ، وفي لبنان ، يذوبون شوقاً لحبة الارز ، في كل يوم خلاف ، بين لبنان وسوريا ، عـــلى المصالح المشتركة ، والوحدة الجمركية ، يبلغ احياناً حـدّ العنف ، اموال المصريين مجمّدة في العراق، ولبنان ، وشرق الاردن، واموال لبنان والعراق وشرق الاردن ، محبوسة في مصر ، القنصليـات العربية ، في مختلف العواصم ، تغصّ بطالبي جوازات السفر ، من قطر عربي ، الى قطر عربي آخر ، فلا يجد ابناء العالم العربي ، فرقاً بين معاملتهم ومعاملة اي اجنبي ، والجامعة العربية واقفة ، لا تبدي ولا تعيد ، كأن هذه الامور ليست من صلاحيتها ولا اختصاصها .

لم تعن الجامعة العربية فيما كان مفروضاً ان تعنى به، اذ ارادت ان تحبس نفسها في نطاق محدود ، وما اهتمت الا بالسياسة ، هـذه السياسة ، التي لم تسلم من الشبهات ، ومن المطامع ، ومن الايحاء والاستيحاء ، فكانت النتيجة ان فشلت ، حتى في هذه الناحية ، لان التعاون السياسي ، اذا لم يقم عـلى تعاون اجتماعي واقتصادي ، وثقافي ، مصيره الفشل المحتوم . هذا ما نعيبه على الجامعة العربية ، عساها تستدرك النقص ، اذا شاءت ان تبقى في قيد الحياة .

ولا يسعنا ، ونحن نعدد اسباب الفشل في العالم العربي ، الا ان نضع في رأس القائمة ، تأخر المرأة العربية .

في الشرق عامة عيبٌ يعيرنا به الغرب، كلما دعونا الى النضال للتحرر من سيادته . فهو يأخذ علينا مسلكنا تجاه المرأة ، وعدم احلالنا اياها ، في مجتمعنا ، او في اكثر مجتمعاتنا المقام اللائق بها ، بكونها انساناً مثل الرجل . فنحن نحرمها من حقها ، من يوم تفتح عينيها للنور ، فنستقبل ولادتها بوجوم وغصّة ، ونحرمها عندما تكبر ، من حقها في العلم والثقافة ، واحياناً من العناية الصحية ايضاً ؛ نورثها نصف ما يرث اخوها ، بموجب الشرع ، ولا يصل اليها من هذا النصف الا الجزء اليسير ، بموجب الاعتبارات الغاشمة والتقاليد الرجعية ، اذا ادخلناها مدرسة ، فلكي تصل الى نصف المعرفة ، خشية وقوعها في شر المعرفة ، كأن المعرفة كلها شرّ نعيذ منه المرأة . نزوجها حسب رغباتنا ، وقلما نستشيرها في الامر ، ننكر عليها حقوقها الطبيعية ؛ في الحب ، والزواج ، والطلاق ، والتدبير ، والتوجيه ، لاننا ننظر الى المرأة ، كآلة للتوليد فقط ، وخادمة للزوج او مربية للاولاد . لا حقوق سياسية للمرأة العربية ؛ الرجل يشرع ، وهي تطيع ، حتى في لبنان ، البلد الذي يفاخر برقيه وتقدمه ، تحرم المرأة من حقها الانتخابي ، بينما يعطى هذا الحق لكل الذكور ، لانهم ذكور ، مهما تدنى مستواهم الفكري والاجتماعي . لقد وعت تركيا ، وهي احدى دول الشرق ، فرفعت شأن نسائها ، فمشت خطوة واسعة الى الامام ، وبقينا نحن ، نرمق تركيا ، بعين جامدة ، ولا تهزنا ولو قليلاً حركتها التطورية .

يقول الرجعيون ، ان المرأة انما خلقت لتكون اماً ومربية ، وتبقى للبيت فقط ، وان اشتغالها بالامور العامة ، يشغلها عن بيتها ،

اصلحهم الله ، فلماذا يكون باستطاعة الرجل ، اي رجل ، الاشتغال بالامور العامة دون ان تشغله هذه عن تجارته ، او مصنعه ، او حرفته ؟ وهل يعنون بذلك ، ان المرأة دون الرجل بادراكها ومقدرتها وعقلها ؟ اذا كان هذا ما يعنون ، فهم على خطأ علمي ، وطبي ، وفسيولوجي . فلا العلم ، يثبت تفوق الرجل ، ولا التجارب تثبت قصور المرأة ، ولكن من اين للرجعيين ، ان يستنيروا بالعلم والتجربة .

هي رجعية العالم العربي ، التي تحكم بالجهل على المرأة ، فتربوهذه ، ضعيفة ، ذليلة ، اتكالية ، صفات تضطرها للالتجاء الى الحيلة ، والخداع ، والرياء ، والانزلاق في مزالق الرذيلة المسكينة .

عبثاً نحاول التحرر من الاستعمار ، وعبثاً نناضل في سبيل الاستقلال ، ما دامت المرأة العربية ، على ما هي عليه من التأخر ، اننا نناضل بنصف قوانا ، واعداؤنا ، يناضلون ويحاربوننا بكل قواهم ، وسنبقى خاسرين ، الى ان نفسح المجال ، لنصفنا الثاني ، ليتمتع بحقوق اجازتها له الطبيعة ، ويقوم بواجباته نحو مجتمعه وامته .

قد يكفر الرجعيون ، من يدعو الى تحرر المرأة من عبوديتها ، وقد يتهمونه بمخالفة شرائع ، وضعها المتفقهون ، وانزلوها منزلة التقديس ، فحرّموا مسّها بتبديل او تحويل . مرحى بكفرٍ ، يؤدي الى التحرر والانطلاق ، في عالمٍ جديدٍ ، قائم على التحرر والانطلاق .

الفصل الثالث

طريق الخلاص

ان مجرد التمعن في اسباب كارثة فلسطين، لا بل كوارث العالم العربي كله ، يعطي المطلع صورة واضحة عن المساعي الواجب بذلها لازالتها ، اذ ان مجرد معرفة الخطأ والاقرار به ، لا تكفي لاصلاحه . فعلى من تقع تبعة العمل للقيام بالاصلاح ، ومن هم الذين يجب ان يُسلموا قيادة الحركة ؟

اننا في عصر الديموقراطية ، والديموقراطية تعني ، حكم الشعب للشعب ، فهو مصدر السلطة ، وهو المسؤول عن كونها صالحة او غيرصالحة . اذن، الشعب هو الذي يجب ان يحمل لواء الجهاد في سبيل خلاصه ، وانقاء الكوارث المحيقة به .

ولكن نضال الشعب يحتاج الى قيادة نيّرة مخلصة . ففي أية فئة من الشعب توجد المؤهلات الصالحة للقيادة ؟

يفرض النظام الديموقراطي ، ان تقوم على السلطة ، حكومة منبثقة عن مجلس نيابي منتخب انتخاباً حراً ، فتتسلم هذه الحكومة قيادة الشعب ، متوخية في قيادتها مصلحته وتحقيق آماله وامانيه .

وما دامت اكثرية الدول العربية ، دولا ديموقراطية بدساتيرهـــا وانظمتها ، فالمنطق يقضي بالاطمئنان الى ان قيادة الشعوب في حرز حريز .

منطق جدلي مقبول ، لو توفرت في ديموقراطيتنا عنـــاصر الديموقراطية الحقـة .

ان الديموقراطية لا تكون ديموقراطية صحيحـــة الا اذا وعى الشعب الى مصيره، فعرف ان له حقوقاً ، وصمم على الا يتنازل عنها وادرك انه هو مصدر السلطة ، وان حريته بانتخاب نوابه وممثليه يجب الا يحدّ منها اعتبارات باطلة ، طائفية كانت ، أم اقطاعية ، ام كيفية ، وان من واجبه محاسبة السلطات على كل تقصير يبدر منها ويقضي على آماله . فاذا اهمل الشعب نفسه ، وتنازل عن حقوقه ، وقبل التعدي على حريته ، فسح المجال لرجال الحكومات بالاستهانة به ، والاستهتار بامانيـه ، وهذا ما هو حاصل بالفعـل في الدول العربية .

بين الفترة والفترة ، يجري في الدول العربية ، المكتوبة في دفتر الديموقراطية ، انتخابات نيابية ، ثم تنبثق عن هذه الانتخـــابات حكومات ، نضطر ، ولو ظاهرياً ، ان نسميها حكومات دستورية ولكن اين الواقع من هذه التسمية . لقد شاهدنا بام عيننا، انتخابات لبنان،وهو في طليعة البلدان العربية تقدماً . فاذا بالخامس والعشرين من نوار ، يدخل بدعة في التاريخ . ولقد عرفنا الشيء الكثير عن الانتخابات في سوريا ومصر والعراق وشرق الاردن ، فادركنا ، ان لكلٍ من هذه البلدان ، الخامس والعشرين من نواره ، وعرّفنا العالم ان العالم العربي ، يزأ بالديموقراطية ، ويهزل بتطبيقها . ٢٢

49

انظر الصفحة التالية

ولقد طفنا اكثر البلدان العربية ، واختلطنا بسكانها ، وزرنا قرويها ، وخبرنا معيشتهم ، فادركنا قيمة الانظمة الدستورية وتبين لنا ، بصورة لا تقبل الجدل والنقاش ، ان الشعوب العربية ، تبرأ من ديموقراطية تستثمرها الطبقات الحاكمة ، وتزيد اقطاعية الاقطاعي وتساق فيها العامة سوقاً الى تأييد المتزعمين ، بينما تحرم هذه العامة من فوائدها الاولية ، عامة تترك على جهلها ، وقرى تشرب الماء الآسن واطفال عرضة للاوبئة ، وغباوة يستغلها الزعماء ، لتزيدهم غنىً ، ووجاهة ، ونفوذاً .

فمن باستطاعته ان يوقظ الشعب من غفوته ، ويفتح اعينه للنور؟

هنا يأتي الدور الذي يجب ان يضطلع به رجال الفكر .

ان العالم العربي لا تنقصه الكتابة ولا الخطابة . ان فيه ما يتخم ، ولكن يعاب على رجال الفكر العرب ، انهم متحصنون ابداً في برجهم العاجي ، يكتبون ويخطبون ، حتى اذا جاء دور العمل يأنفون ، فيتركون الميدان فسيحاً لرجال السياسة . واكثر هؤلاء لايقيمون للفكر وزناً ، ولا يضحّون للدرس وقتاً . فاذا بقي رجال الفكر في عزلتهم وتحفظهم ، فمن المحال ان يستيقظ الشعب ، وتبقى الخطب والكتابات ، حرفاً ميتاً ، يصفق لها الناس ، ويسخر منها ومن قائليها وكاتبيها اصحاب القول الفصل القائمون على مقدرات الشعب .

وقلما توجد بلاد في الدنيا ، كالبلاد العربية ، تمتهن فيها كرامة المفكرين ، ولا يحسب فيها للفكر قيمة . اننا نحلف صادقين ، ان تسعين بالمائة من رجال الحكومات العربية ، يبخلون بساعة من يومهم للاطلاع على ما يكتبه اديب ، او فيلسوف ، او رجل علم ،

ولا عجب في ذلك مادام الحكم يجيئهم سهلاً ؛ ولو كانوا امين ؛ عن طريق الزعامات العائلية والوراثة ، والوجاهة المالية ، يشترون بها مديحاً من قلم مسخّر او مأجور .

ان الواجب المفروض على رجال الفكر ؛ ان يخرجوا من حيز الكلام والكتابة ؛ الى حيز العمل ؛ وليس ذلك بالامر السهل عليهم ؛ فالمقاومة ستعترضهم ؛ والرجعية بما لديها من سلطان ؛ ولديها قسط وافر منه ؛ ستعمل لاحباط مساعيهم . اتراهم يجبنون فيكتبون وثيقة اذلالهم واذلال امتهم بيدهم ؟ انهم اذا جبنوا ؛ اضاعوا على العالم العربي امله الاخير .

اما كيف يستطيع المفكر ان يخوض المعترك العملي الاصلاحي فمنوط باقلاعه عن النظر الى الادب والفلسفة ، والفن ، نظرة افلاطونية . ان مهمة الادب والفن والفلسفة ؛ اذا بقيت ادباً وفناً وفلسفة ، دون ان يتخذ منها قاعدة للعمل ؛ في حقل الاجتماع والسياسة ؛ والمعيشة اليومية ؛ لا تزيد كثيراً عن الصفر ، فتبقى مقدرات الاجتماع ؛ والسياسة ؛ والمعيشة اليومية رهينة الجهل ؛ والاهواء والدعاية .

ان الوعي الشعبي ، يقوم على الجمعيات الثقافية والاحزاب السياسية ، لا تكتلات جماعية ، ولا احزاب شخصية . وهذا ما ادعو رجال الفكر الى الاضطلاع به ، فيقطعون الطريق ، على تجار السياسة وبائعي الزعامات .

فالخطوة الاولى التي يجب على رجال الفكر ان يخطوها ، هي الخروج عن عزلتهم ، ودخولهم المعترك العملي السياسي ، وانخراطهم في احزابها ، فيتخذون فيها مركز القيادة الفعلية . ومتى خطوا هذه

الخطوة ، فبوسعهم وحدهم ، تسييرها في الطريق القويم ، فيكذبون بعملهم الاسطورة القائلة ان السياسة حيلة وكذب وخداع .

وبعد ان يخطو رجال الفكر هذه الخطوة الاولى التصميمية ، ينتقلون الى الخطوة الثانية العملية ، فيدخلون في النضال الحزبي ، ويسيرونه على اساس العلم ، والوعي ، والواقع .

ان النضال الحزبي ، لا يكون نضالا ديموقراطياً صحيحاً الا اذا كان مسيراً بوعي اجتماعي ، لا يقتصر على فئة ما من الشعب ، بل يشمل جميع الفئات ، كي لا يحدو الطمع بالفئة الواعية الى الانتقاص من حقوق الفئات الاخرى ، ويصبح النضال الحزبي نضالا طبقياً ، فتضيع فائدته ويحل الخصام محل التعاون والوئام .

اذن يجب ان يسبق النضال السياسي الحزبي ، نضال اجتماعي ، اذ ما الفائدة من تكتل حزبي معيّن ، تتباين فيه نظريات الافراد في الامور الاجتماعية ، والنظم الاقتصادية ، والمفاهيم الدينية والعقائدية؟ وكيف يمكن ان تتوحد الجهود اذا كانت الاهداف غير موحدة ؟ وكيف يسمى حزباً ، مجموعة من الناس ، تضم العامل والاقطاعي والفلاح ، وتضم العلماني والطائفي ، وتضم الرأسمالي والاشتراكي ، وتضم الجمهوري والملكي ، وتضم الاديب والذي يحتقر الادب ، والثري والذي ينظر اليه بعين الحقد ، متحيناً الفرصة للانقضاض عليه؟

فالحزب الواحد ، يجب ان يكون له هدف واحد ، يعمل للوصول اليه بوسائله المختلفة ، وبموجب نظام يضعه لهذه الغاية ، وفقاً لتطورات الحزب ، وتقلبات الاحوال الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية في البلاد .

ومن الخطأ المؤدي الى الفشل ، ان يستهدف الحزب في تشكيله ،

اكثار المنتمين اليه ، دون النظر الى الفكرة الجامعة التي تجمعهم . فالتمسك بفكرة الحزب ومبدأه ، واهدافه ، واجب ومحتم على كل من اعضائه . فان لم يكن كذلك ، وهي الاساس الذي تقوم عليه الحزبية ، فلا تلبث هذه ان تتفكك . وليس ضرورياً ان يبدأ الحزب كبيراً ، بل اني اذهب الى اكثر من ذلك لاقول ، انه افضل بكثير ان يبدأ صغيراً ، وعلى اسس ثابتة ، فينمو شيئاً فشيئاً ، وذلك عندما يظهر انه ثابت العقيدة ، لا يحيد عن المبدأ الذي رسمه لنفسه . والشرط الاول لنجاح اي حزب هو ان لا يفكر مؤسسوه والقائمون به انهم هم الذين اول ما يجب ان يستفيدوا من قوته . فالحركة الحزبية طويلة وشاقة ، ويجب ان ينظر الى فائدتها العامة للجيل المقبل ، ولا بأس اذا زرع الآباء وتركوا للابناء لذة الحصاد . اليس هذا ما يفعله الاب الصالح من اجل ابنائه ؟

هكذا قامت الاحزاب في البلدان العريقة ، هكذا قامت احزاب المحافظين والاحرار والعمال في انكلترا ، وهكذا قام الحزبان الجمهوري والديموقراطي في اميركا . وهكذا قام الحزب الشيوعي في روسيا ، والحزبان النازي والفاشيستي في المانيا وايطاليا . كل من هذه الاحزاب قام على فكرة ، ونهج على خطة عملية لانجاحها .

فاول ما يجدر بالقائمين بالعمل الحزبي ، ان يضعوا نصب اعينهم فكرة ، ويبنوا عليه فلسفة يستوحون منها نشاطهم ونضالهم . واذا كان معقولا ان تكون هذه الفلسفة مستوحاة من مبادىء عامة وضع اسسها اقطاب من فلاسفة التاريخ ، غير ان الزمان والمكان وسنة التطور ، والحضارات الشعوبية ، والموجبات الاقليمية ، والعوامل المميزة للبلدان ، لها شأنها في تطبيق هذه المبادىء . فكارل ماركس

مثلاً ؛ عندما وضع اسس الفلسفة الاشتراكية العملية ، ترك للعقل البشري مهمة تطبيقها . فالفلسفة ليست عملية حسابية ؛ انما هي فكرة قابلة للتطور والتحول عن طريق التفاعل الفكري ؛ والقابلية الاقتباسية والانطلاقية في الشعوب . ان « كارل ماركس » لم يكن مبتكراً ؛ فالعهد الجديد الذي قام منذ ظهور المسيح ؛ قام على النظرية الاشتراكية ؛ غير ان التعاليم المسيحية ؛ بالتزامها الناحية الروحانية بقيت عرضة لتفسيرات مذهبية دينية ؛ واستغلالات مبدأية لم تسلم معها النظرية الاشتراكية من التشويه ؛ في قلب العالم المسيحي نفسه ، الى ان جاء « الملحد الاكبر » فوضع القواعد العلمية لتطبيق النظرية الفلسفية التي اطلقها المسيح وتركها على ذمة الروح ؛ فاستطاعت مادية ماركس ؛ ان تخدم الفكرة الاشتراكية المسيحية ، التي لم تكن ظروف الزمن عند اطلاقها ؛ موآتية لوضع منهاج اشتراكي عملي لها ؛ ولهذا كان على الفلسفة الاشتراكية ان تنتظر تسعة عشر قرناً ؛ لبينما تكون تهيأت لها الامكانيات الانتاجية والصناعية التي لا تستقيم الاشتراكية بدونها .

وهكذا نرى ان كل حركة حزبية ؛ يجب ان تنهج نهجاً فلسفياً خاصاً ؛ اشتراكياً كان ام رأسمالياً ؛ ام علمانياً ، أم مذهبياً أم عنصرياً ؛ على ان العالم اليوم ؛ يميل الى السير في النهج الاشتراكي ؛ على مختلف قواعده وانطباقاته المتعددة ؛ المستوحاة من شتى الاعتبارات الاقليمية والقومية والاجتماعية في الشعوب . فالعامة لم تعد تقبل باوضاع ترغمها على الانقياد للخاصة ؛ بعد ان فعل التطور الانساني فعله فيها ، اذ اصبحت تدرك مدى تأثيرها في المحيط العالمي.

■

ان الحركة الحزبية في العالم العربي ؛ لا تنطبق مطلقاً على القواعد .

العلمية ؛ وما سبب ذلك سوى ابتعاد رجال الفكر عنها ؛ واقتصار نشاطها على محترفي السياسة ؛ ووارثي امجادها ؛ ومستثمري نتائجها .

اذا اجلنا بنظرنا الى الاقطار العربية كافة ؛ فلا يسعنا القول، ان الحركة الحزبية موجودة بمعناها الصحيح في أي قطر من منها . فالاحزاب السياسية القائمة ؛ هنا وهناك ؛ تخلو كلها من الاسس الصالحة للكيانات الحزبية . واذا توسعنا قليلاً في الموضوع ؛ نرى ان الجماعات المسماة احزاباً ؛ تقتصر مناهجها في اكثر الاحيان على مقاصد سلبية ، كأن يقال مثلاً ؛ هذا حزب مقاوم للفاشستية ؛ وذاك مناهض للشيوعية ؛ وآخر ضد الاقطاعية وهلمجرا . وما من حزب واحد يبني مقاومته للفاشستية او للشيوعية أو للرأسمالية او للاقطاعية على برامج ايجابية محدودة . وهذا راجع بنظري الى سببين : الاول هو ان الشرق العربي لاجيال طويلة كان يرزح تحت وطئة الاستعمار فاقتصر نشاطه اثناء كل هذه المدة على مقاومته والسعي للتخلص منه ، وهذا هو السبب في قيام التظاهرات واقفال المدن والمتاجر ومحلات العمل كلما شعر الناس بحيف او ضيم . اما السبب الثاني : وهو وليد الاول ؛ فهو النقص في تربيتنا السياسية .

وشر الاحزاب في الشرق ؛ الاحزاب الشخصية . هذا حزب يتزعمه امير ؛ وذاك يتزعمه شيخ وآخر يتزعمه « بك » اقطاعي او رئيس طائفة ، برنامجه النضال للوصول الى الحكم لا لتطبيق نظريات مخصوصة في اساليب الحكم وتوزيع الضرائب وسن الانظمة توحيها له النظريات ؛ بل للتمتع بالسلطة والافادة منها . واذا استثنينا امراً واحداً لم تختلف الاحزاب الا في شكلياته ؛ وهو مقاومة الاستعمار ؛ فما من حزب واحد يعمل على اساس فلسفة حزبية خاصة يناضل في سبيل تحقيقها ، لامن حيث الحياة الاجتماعية ولا الاقتصادية ولا السياسية .

ان في الشرق العربي طغياناً فردياً . فلقد طالما رأينا بلداً او دولة تأتمر بامر امير واحد او عائلة واحدة او فئة معينة. فالديموقراطية العربية ، في الواقع ، اسم لغير مسمى . وقد لا نكون مغالين اذا قلنا ان في الشرق العربي نزاعاً بين الحاكم والمحكوم . الاول يعمل لحصر السلطات في يده و كبت نشاط الثاني متى رأى في نشاطه مساً به ، فهو لا يألوا جهداً للحرص على سلطانه بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة . ووسط هذا الطغيان الفردي ، والفردية هنا تشمل الجماعات المختارة ، يرى المحكوم نفسه منشغلاً عن العمل الايجابي ، بالعمل السلبي ، لمجابهة طغيان الحاكم وردّ غوائله .

والامر الراهن في الدنيا العربية انه يتعذر على الحاكم ان يتفهم فكرة الدولة الاّ اذا كانت هذه قائمة على اساس كونه هو سيد الدولة وحامي ذمارها . فاذا رأى من قومه من كان رأيه على غير رأيه ، عدّه عدواً له وللدولة معاً ، فلا يسلم هذا الاخير من ضروب العسف والارهاق التي قد تتوقف احياناً عنه حد اهماله وانكار حقوقه عليه ، وقد تزداد احياناً ، الى سجنه أو تشريده ، وقد تبلغ حدّ الغلو فتطيح برأسه .

وما من بلدٍ من البلدان المتقدمة ، يؤله الحكام تأليههم في البلدان العربية . ولا احسب ان هذا التأليه من دلائل الوعي الاجتماعي . فالحاكم خادم للشعب ، اذا كان المفروض ، ان يحتفظ له بالهيبة والاحترام ، فمن الخطل تحويل الهيبة والاحترام الى حد التقديس والعبادة لئلا ينتج عن ذلك غرور في الحاكم ، والتواء في غاية الحكم. ان للحاكم حقوقاً يجب ان لا يتعداها ، وان عليه واجبات لا يجوز ان يتنازل له المحكوم عنها . ولا يتم هذا الا اذا كان الشعب واعياً ، وما من شيء يخلق في الشعب الوعي المنشود اكثر من التمرّس

الحزبي . فالاحزاب السياسية القائمة على فلسفة خاصة ومفاهيم معلومة وقواعد اجتماعية واقتصادية وعمرانية وانسانية مرسومة ؛ هي مدرسة تنير السبيل للفرد وللجماعات ؛ فيعملون منفردين ومتكاتفين في تكوين وتطور الامة التي ينتسبون اليها .

والشرط الاول لنجاح الاحزاب ، ان تسمو قيمة المواطن الفرد في عيني نفسه اولاً ؛ وفي عيون الآخرين ثانياً ؛ بحيث يكون ركناً من اركان الفكرة التي يتمشى عليها الحزب الذي هو احد اعضاءه ؛ كي لا يكون وجوده فيه آلياً . فللفرد حقوق طبيعية ؛ اذا جهلها او تنازل عنها ؛ انتقص من انسانيته . واذا قلنا بخطأ الطغيان الشخصي بالتكوين الحزبي ؛ فانما لا نعني ابداً القول بذوبان الحرية الفردية وهي الالف والياء من وثيقة حقوق الانسان . ولهذا نصرّ على القول ؛ ان الرقيّ الاجتماعي ضرورة لازمة ؛ لكل حركة حزبية . وكل فرد يجب ان يكون له من قوته الادراكية العاملة ما يؤهله للتمييز بين فكرة وفكرة ؛ فلا يكون انقياده لاحداها ؛ انقياداً اعمى .

والشرط الثاني للنجاح هو عدم التقليد . اقول عدم التقليد ؛ لا عدم الاقتباس . فمن الجائز ؛ بل من المستحسن ؛ ان يقتبس حزب العمال عندنا ؛ مبادىء عن حزب العمال في بريطانيا مثلاً ؛ وان يقتبس الحزب الجمهوري او الديموقراطي ؛ عن حزب الجمهوريين او الديموقراطيين في اميركا ، وان يقتبس الحزب الاشتراكي او الشيوعي عن سميّه في روسيا بعض تعاليمه الاجتماعية والاقتصادية او التنظيمية ؛ ولكن ما ليس جائزاً ابداً هو ان تقلد احزابنا الاحزاب المماثلة في البلدان الاخرى ؛ وتنقيد بها ؛ كي لا تفسح بتقليدها وتقيدها ؛ مجالاً لتدخل خارجي ؛ غايته غير غايتها ؛ وهدفه البعيد غير هدفها . فاذا

57

جاز اقتباس شيء من مبادىء فلسفة الاحزاب الاجنبية ، فالذي لا يجوز بتاتاً ان يدخل في هذا الشيء المقتبس سياسة تطبيق هذه الفلسفة ؛ اذ ان تطبيقها ؛ يجب ان يكون عملاً وطنياً ؛ مستمداً من الروحية القومية الخاصة في مختلف الاصقاع والبلدان .

■

على ضوء هذا البحث ؛ نهيب بقادة الفكر في العالم العربي ؛ ان يخرجوا عن عزلتهم ويدخلوا جادين في المعترك العملي الاصلاحي؛ الذي لا يقوم الا بجهودهم ؛ والتي لا يلوثها صدأ التقاليد الرجعية؛ ولا تفسدها الشعوذة ؛ ولا يستطيع الطمع ان يحدّ من فعاليتها .

ان العالم العربي بحاجة ماسّة الى مدرسة اخلاقية اجتماعية ؛ انه بحاجة الى مجهود تعاوني والى تكتل حزبي انشائي ؛ يرفع شأن الرأي العام العربي ؛ هذا الرأي العام الحائر غير المستقر. انه بحاجة الى من يدله على طريق الخلاص ؛ التي تؤدي به الى التحرر ؛ من دعاة الاقطاعية وحماتهم؛ من مستثمري امواله؛ وسارقي رغيفه؛ والراقصين على قبره. انه بحاجة الى من يعيد اليه ثقته بنفسه ؛ ويفتح عينيه للنور ليبصر ؛ لا ان يقاد انقياداً من قوادٍ هم انفسهم يكرهون النور .

ان الواجب الاول والاهم على رجال الفكر؛ تنوير الرأي العام العربي ؛ فالامم لا تقوم برأي عام جاهل . والدول العربية؛ لا تفتقر الى فئة واعية ومخلصة من رجال الفكر ؛ فمن الحيف ان يظلوا منكفئين عن التدخل الفعلي للاصلاح .

اننا لا نرى رأي المتشائمين ؛ الذين يرون في عدم قيام وحدة سياسية في العالم العربي ؛ السبب كل السبب لتأخره . فالوحدة السياسية، اذا لم تكن مبنية على وحدة ثقافية، واجتماعية، واقتصادية

ومعيشية ، واذا لم يسبقها وحدة في المفاهيم العمرانية ، وفي وجهة نظر الشعوب العربية ؛ للقيم الروحية والانسانية ؛ وفي تفهمها للمثل العليا ؛ وفي استعدادها لقبول التطور الفكري والروحي ؛ بقيت خيالاً ؛ يدغدغ الحالمين ؛ وينكر على الواقعيين ؛ سعيهم لدخول البيوت من ابوابها .

ليس تعدد الكيانات في العالم العربي ؛ سبباً لقعود المفكرين عن السعي لاصلاح بيوتهم ومجتمعاتهم . ان بوسعهم وحدهم ؛ ان يجمعوا بين الشعوب العربية ؛ ويجانسوا بين مفاهيمها ؛ ويقربوا بين وجهات نظرها الى الحياة والفن ؛ وينقلوا الحسن ؛ من مجتمع الى مجتمع ؛ ويتكاتفوا على ازالة السيء ؛ اينما وجد ؛ ويخلقوا في العالم العربي ؛ وحدة روحية ؛ لا بد منها لقيام وحدة سياسية .

ان الدول العربية ؛ مليئة بالادران ؛ التي لا يستطيع معالجتها ؛ غير الاطباء ؛ اطباء الاجتماع ؛ والصحة ؛ والفكر ؛ والاقتصاد ؛ وقلما يوجد اطباء ؛ يعنون بمعالجة هذه الادران ؛ بمهارة واخلاص ؛ في الرجال القائمين على الحالة الراهنة في العالم العربي ؛ وويل للمريض ؛ تترك معالجته على ذمة التخدير ؛ والترقيد ؛ والدجل .

ان بوسع رجال الفكر وحدهم ؛ ودون سواهم ؛ خلق ثورة فكرية ؛ في كل امة ؛ من العائلة العربية ؛ ثورة تقضي على الطائفية والمحسوبية في لبنان ؛ وعلى الاقطاعية ؛ والجهل والعوز ؛ على ضفاف النيل ؛ وفي سهول الرافدين ؛ وبقاع الغوطة ؛ وعلى الرجعية ؛ والكسل والخمول ؛ في بطاح يتفجر منها الذهب الاسود ؛ وعلى كل هذه الادران ؛ مجتمعة ومنفردة ؛ في كل قطر من الاقطار العربية .

ان بوسع رجال الفكر ؛ وحدهم ودون سواهم ، ان يشفوا العائلة

العربية ؛ من مركب النقص ؛ وعبادة الاصنام ؛ وان يخلقوا في شعوبها ؛ ما لا غنى عنه في نهضة الشعوب ؛ من وعي اجتماعي ؛ وتمرد خلاق ؛ يخرجها من عالم الجمود والخمول والخنوع ؛ والاستسلام .

قد تتنوّع المهمة الملقاة على رجال الفكر ؛ تنوع البلدان العربية المختلفة والبيئة التي يُعمل فيها ؛ ونحن لا نرى في ذلك كبير امر ؛ لان العمل الفكري الواعي ؛ لا تؤثر فيه الحزازات والعصبيات الموضعية ؛ والاعتبارات التقليدية ؛ التي يتمسك بها غيرهم ؛ بقصد الافادة منها . فما من قوة ؛ باستطاعتها ان تبعد اخطار هذه الاعتبارات عن العالم العربي ؛ او بالحري ما من قوة باستطاعتها ، الجمع بين حسناتها ؛ وتحاشي سيئاتها ؛ اكثر من التفاعل الفكري ؛ في مختلف بيئات العائلة الكبرى الواحدة . فلا العروبة المسلمة ؛ ولا اللبنانية المسيحية ؛ ولا الفينيقية ؛ ولا الفرعونية ؛ بمقدورها ان تفرق بين مصالح الشعوب العربية ، التي تربطها لغة واحدة وجغرافية واحدة ؛ وخطر واحد ؛ والتي يجب ان يوفق بينها ؛ مجتمع واحد ؛ او على الاقل متناسق ؛ وتوجيه واحد .

■

قد يجد القارىء ؛ في هذه الرسالة التي وضعناها ؛ على أثر المصير الذي آلت اليه القضية الفلسطينية ؛ الحاحاً بضرورة التكوين الحزبي ؛ وهو الحاحٌ مقصود ؛ لان وصف العلة ؛ والتحذير من خطرها ؛ لا يكفي لشفائها ؛ بدون طبيب ماهر او جرّاح يشرط ؛ ولا يشفق . وما الطبيب الذي نعني ؛ سوى الحزب ؛ او الاحزاب ؛ التي تنشأ وتنهج ، على الاسس التي وضعناها في هذه الرسالة ؛ والتي يجب ان يتولى قيادتها رجال فكر ؛ لا محترفو سياسة .

وهذه الاحزاب الواجب انشاؤها ؛ مفروضٌ في ان تعتمد على الشباب ؛ وهم الذين لا تقوم الدول ؛ الا على اكتافهم ؛ وبجهودهم ونشاطهم ؛ احزاب منبثقة من العامة اكثر من الخاصة ؛ ومن الفئة المحكومة ، لا من الفئات الحاكمة ، او الفئات ذات النفوذ الاقطاعي او الطائفي ؛ او الاقتصادي ؛ احزاب علمانية بحتة ؛ لا يكون فيها للطائفية حرمة ولا للحسّ الديني اعتبار ؛ احزاب متمسكة بعقيدتها متطرفة بالتقيد بها ؛ احزاب لا يستهويها القديم ؛ ولا تغريها امجاد الماضي . احزاب لا تقضي وقتها بالتغني بالعروبة ونبش التاريخ ؛ وفتوحات فينيقيا وحروب الفراعنة ؛ احزاب لبنانية واحزاب سورية واحزاب مصرية واحزاب عراقية مُثلها التقدمية واحدة واهدافها الاجتماعية والاصلاحية واحدة . احزاب انقلابية ثائرة على الظلم وعلى الرجعية لا تلين امام الارهاب ولا يفت من عضدها الارهاق ؛ ترتبط بعضها مع بعض بهدف واحد لتخلق في العالم العربي مجتمعاً متناسقاً متضامناً ؛ يقوى على مغالبة الاحداث العالمية والدولية بروح ونضال مشترك .

. . على العالم العربي ان يأخذ محنة فلسطين كما هي بعد ان اصبحت امراً واقعاً على الرغم من تهويش بعد الاوساط ؛ ومماحكات سياسية تجري في البلدان العربية وفي « ليك سكسس » وفي قصر « شايو » وفي الجامعة العربية نفسها ، لا يقصد القائمون بها غير ستر الحقيقة تضليلاً وتمويهاً وتخديراً . فعلى المواطن العربي ان ينفض الكمامة عن عينيه لتظهر له الحقيقة كما هي ؛ مهما كانت مؤلمة ومفجعة ، ويعمل بعزم ووعي واقدام ؛ على تضميد جراحاته . ثم الوثوب على مفترسيه ؛ فيثأر لكرامته ويستعيد حقه المسلوب .

لقد طال هجوع الشباب ؛ والشباب يقظة ووثوب . واني اغار

على سمعة الشباب العربي ان يوصم بالذل والخنوع .

هو جهاد طويل وشاق ؛ والطريق صعبة ووعرة ؛ وعلى قدر ما تكون الطريق وعرة ؛ يجب ان يكون النضال شديداً وقاسياً . فالحياة صراع ؛ لا يفوز فيها غير الاقوى والاصلح ؛ والانسب . ٢)

الفصل الرابع

الفجيعة الزاحفة او قضية اللاجئين

ليست قضية اللاجئين من عرب فلسطين ، بالقضية التافهة ، ولا بالقضية العارضة . انها من لبّ القضية العربية الكبرى ، ما عرف العرب اخطر منها واوجع ، منذ ان كانوا عرباً .

ستمائة الف عربي يطردون من ديارهم ، ويشردون في الافاق ، يخرجون من بيوتهم ، ويتركون املاكهم ومتاجرهم عرضة للسلب والنهب من اعدائهم ، يذبحون ذبح النعاج : في دير ياسين وطبريا ويافا وعكا وحيفا وغيرها . الحوامل من النساء يضعن ولدانهم على قارعة الطريق ، ويترك الولدان طعمة للموت ، واطفال يفقدون آباءهم وامهاتهم ليهيموا على وجوههم يتامى نائحين . بؤس مخيم على قوافل من البشر تائهة في الفيافي والقفار . ومشاهد مروعة تفوح منها رائحة الموت ، وفقر يمشي مع القافلة ، واوبئة تسير مع التائهين .

ماذنب هؤلاء البؤساء يارب ، وماذا جنى هؤلاء الاطفال ليفتحوا اعينهم على عذاب الدنيا وشقاءها ، وما هي خطيئة هؤلاء المشردين ؟ سوى انهم آمنوا بعدلٍ على الارض وبرحمة من السماء .

لقد كفر الاقوياء بالعدل والحق ، فنزلت ويلاتهم على الضعفاء . لقد آمن الضعفاء بالعدل والحق ، فاذا عدل الدنيا وحقها ، كذب وضلالة .

أصحيح انك ربّ يا ربي ؟ أصحيح انك آله الرفق والرحمة والمحبة والحق ؟ أصحيح ان ما يجرى على الارض هو ما تشير به السماء ؟ أصحيح انك رب الارض ومن يعيش على الارض ، وانك آله واب للجميع ؟ ام انت رب الذين يقولون انك ربهم فقط ، مذ اصطفيتهم شعبك المختار ؟

لقد بدأ يتزعزع ايماني بك ياربي ، مذ رأيت الناس يأتون الشر باسمك ، ويحرقون الارض بشموعك ، ويستسيغون سفك الدماء بشريعتك .

■

هذه القوافل الهائمة ، هذه المواشي البشرية الزاحفة ، هذه البطون الجائعة والوجوه الكالحة ، هذا البؤس الذي يمشي مع المشردين ، هذه النكبة التي حلت بالعرب ، أتكون هذه كلها درساً للعرب ؟ يدركون منه ، ان الحق لا يكون حقاً ، اذا لم تساعده قوة تحميه من غدر الاقوياء ومن طمع الطامعين . ان الدنيا صراع بين الحق والقوة ، والحق نفسه صراع بين الفلسفة الميتافيزية الغيبية والفلسفة المادية ، الاولى تطمئنه بانه يعلو ولا يعلى عليه ، وان الكلمة الحاسمة للروحانية وان التذرع بالمثالية الانسانية ، والاستسلام لها يضمنان له النصر الاكيد ، فتجيبها الفلسفة المادية ان الحق بحاجة الى قوة تحميه ، وان الحق لا يعلو الا اذا ساعد السعي الحثيث على رفعه ، وان المثالية الانسانية التي تبشر بها الفلسفة الغيبية ، ضرب من الوهم ، وان

المبشرين بها اما اقوياء يخشون ان تفلت القوة منهم أو ضعفاء اذلاء كسالى ، يستعذبون العبودية ويقنعون بالخيال ، ويحمدون الله .

والطريف في هذا الصراع ان الذين يدّعون انهم حملة لواء الحق هم القابضون على القوة ، يتمسكون بها ويغذونها ، لكي يفرضوا على الناس ما يسمونه حقاً ، كأن الحق والمثالية رهينتا فلسفتهم ، وشريعتان من شرائع الازل لبقاءهم .

لقد بالغ الاقوياء بتفاخرهم وتظاهرهم بالغيرة على الحق والحرية والعدالة ، واشبعونا من ادعاءاتهم حتى التخمة ، فاصبحنا نرى في كل ذلك دعاية رياثية ، لا اكثر ولا اقل . وبالغ الشرق في استسلامه للفلسفة الميتافيزية الغيبية ، يقاسي الذل والهوان والتشريد والتشتيت منتظراً ان يعلو الحق ، دون جهد أو عناء .

فهل يقلع الشرق عن غيبيته ، فيضارع الغرب في فلسفته العملية ، وهل يتخذ العالم العربي من نكبة فلسطين ، وما جرته عليه من الويلات ، وما سببته لابنائه من تشريد وتجويع ، امثولة تخرجه عن ميتافيزيته ، ويعلم ان القوة لا تقاوم الا بالقوة ، وان العلم بصناعته وآلاته ، وقنبلته الذرية مفتاح النجاح في عالم الآلة والصناعة والقنبلة الذرية ؟ .

■

تحاول المحافل الدولية ذات الهدف السياسي البعيد ، ان تجعل من قضية لاجئي عرب فلسطين ، قضية انسانية وحسب . وتنجرّ المحافل العربية المشايعة لسياسة هذه المحافل الدولية ، الى النظر للقضية من هذه الوجهة فقط . فاذا كان للمحافل الدولية الاجنبية عذرها أو حجتها أو غايتها في هذا التحويل ، فما هي حجة الدول العربية في

تحويل الواجب الوطني والقومي الى احسان انساني ؟

في عرف الناس ، ان الاحسان مبرّة ، وقد يكون كذلك اذا كان الاحسان عملاً خيرياً انسانياً بحتاً . ولكن الاحسان ينقلب الى مذلة تقع على المحسن اليه اذا كان عوزه نتيجة لتحكم المحسن وظلمه . فالاحسان الذي يدفع المجوّع ان يطعم الجائع . والاحسان الذي يهيب بالقاتل ان يدفن القتيل . وبالظالم الصلف ان يحنو على البائس المظلوم ، هو استثمار للفقر واستعباد للبؤساء .

ويخيّل الينا ان الغيرة التي يتظاهر بها رجال الدول الكبرى على اللاجئين ، والحماس الذي تبديه هيئة الامم المتحدة في التحدث عن وجوب مساعدتهم . والاستعدادات التي تجاهر بها الاذاعات ولجان البر التي تؤلف في الاقطار العالمية لاستعطاء الحسنات للعرب المشردين ، يخيل الينا ان ذلك بمعظمه يدخل في نطاق الاحسان الذي اتينا على ذكره في الفقرة السابقة .

والذي يزيد في احتراسنا من هذه الحملة التي يشنها الداعون اليها تلك الدعاية التي يقوم بها في الصحف وفي الاذاعات ومن على المنابر رجال الدول واقطاب المؤتمرات الذين غلبت عليهم الشهوة عندما كانوا يجتمعون ليقرروا انزال الكارثة بفلسطين وفتح ابواب الهجرة لابنائها ، هؤلاء الذين كانوا الى الامس ظلاماً ، فاذا بهم اليوم في عداد المحسنين . صدق القائل « ليتك لم تزني ولم تتصدقي » .

لقد شغلت قضية اللاجئين الجمعية العمومية للامم المتحدة ومجلس الامن فيها ، هذه الجمعية ، وهذا المجلس اللذان تطوعا للدفاع عن الصهيونية ، واللذان فرضا قرار التقسيم وخلقا دولة اسرائيل وراح زعماؤها وقد هزتهم « الانسانية السياسية » يرسلون النداء تلو النداء

يستجدون عطف العالم على المنكوبين المشردين كأنهم ارادوا ان يستروا عملهم الجنائي بعمل يستعيرونه من المبدأ الانساني، يسخرونه على عادتهم في تسخير المبادىء السامية لاغراض ومطامع شهوانية . مناورة من مناورات القوة وسبيل من سبل التضليل .

والذي يحزّ في ألم النفس اننا نحن ابناء العالم العربي في تواكلنا واستصغارنا لانفسنا نعالج المصيبة الفرعية ، كما عالجنا المصيبة الاصلية باستعطاف واستعطاء واستجداء، بالحجة التقليدية الذليلة، حجة الفقر والحاجة الى الاحسان .

اما رأينا اقطاب الحكومات والجامعة العربية ووفودنا الى الامم المتحدة يناشدون العالم المتمدن العطف ويستنجدون باصدقاء العرب وبالذين عملوا في دنيا العرب ، مرسلين أو تجاراً أو سياسيين ؟ اما رأينا مسلميهم يناشدون مسلمي الباكستان والهند وايران وافغانستان الاسراع لنجدة اخوانهم من عرب فلسطين محافظة على المسجد الاقصى وغيرة على قدسية ثاني الحرمين ؟ اما رأينا مسيحييهم يطرقون ابواب الفاتيكان ويستعطفون العالم المسيحي ، لكي يهرع الى مساعدة اخوانهم المنكوبين ، لهفة منهم على حرمة قبر المسيح والاراضي المقدسة؟ اما رأيناهم، بمركب النقص الكامن في نفوسهم، يندبون حظ البلاد العربية ويبكون على مصيرها متجاهلين ، فتح الله بصائرهم، ان الحظ حجة الضعفاء والكسالى، وان الندب والبكاء ذريعة الانخذاليين؟

وتستفز العاطفة الانسانية محسني الغرب الحقيقيين كما تستفز « الانسانية السياسية » مشاعر مستثمري الاحسان فتهرع البعثات من الفئتين، الاولى تعمل الخير للخير، والثانية تعمل الخير لغاية من غايات النفس واستثماراً للنكبة وشقاء البائسين .

يزور اللاجئين يومياً رجال ونساء من البعثات الخيرية المتعددة يشاهدون بؤسهم ويلتقطون صورهم ويواسون التعساء منهم ، ان لهؤلاء احترامنا وتقديرنا . ويزور اللاجئين احياناً رجال ونساء من البعثات المتعددة يدرسون ويمحصون وينوّعون بين منكوب تفرض فيهم اغاثته ومواساته ، وبين منكوب يستحق النكبة في عرفهم لما قد يعرف عن ميوله او ما قد تتمخض به ذهنيته من نزعات لا يقرها هؤلاء « المحسنون » ان من مثلهم نحذر ، ومن احسانهم نستعيذ ، فمتى خرج الاحسان عن غاية الاحسان فقد طابعه الانساني المشكور ليصبح سوقاً للمساومة والمتاجرة بالمثل الانسانية .

■

العالم العربي الذي يضم سبع دول مستقلة .

الدول العربية التي يسكنها اربعون مليون نسمة وتحمل خمسة عروش ورئاستي جمهورية .

الثروات العربية المتجمعة من نفط الجزيرة والعراق . وقطن مصر . وقمح سوريا . وتجارة لبنان . وما هو معروف وغير معروف من موارد اليمن .

الاموال التي تبذرها الحكومات العربية على ما هو ضروري وغير ضروري ، من البعثات والحفلات والاعياد والمظاهرات .

الاقبية الملآنة ذهباً في البلاطات ، والخزائن المكدسة نقداً في قصور الباشاوات والتجار ، واكوام الاغلال على بيادر الاقطاعيين .

ان تعجز هذه كلها عن الترفيه عن ستماية الف لاجيء فلسطيني ، وان لا تقوى على اغاثة المنكوبين منهم وان تبخل بالدرهم الابيض

لهذا اليوم الاسود ، وان تطلب الفرج لهؤلاء البائسين من خارج دنيا العرب . ان هـذا وأيم الحق طليعة الانهيـار القومي والخلقي والعياذ بالله .

انها لجناية كبرى ، ان يترك اللاجئون العرب على ما هم عليه . انها لجريمة شائنة ان نبذخ في معيشتنا وان نتخم نحن من الشبع وهم جائعون . وان ندفأ نحن وهم يبردون ، وان نقيم المآدب العامرة في افراحنا واعيادنا وهم ينـامون على الطوى ثم يموتون . وان ندلل اولادنا واطفالنا ، واطفالهم في العراء عرضة للاوبئة والجهل وامراض الجهل ، تعشعش في نفوسهم الخضراء جراثيم النقمـة على الحياة وعـلى المجتمع ونعد منهم جيلاً جاهلاً فاسداً ناقماً .

ان البلدان المتمدنة عندما تحل بها نكبة مثل نكبتنا ، ينصرف الناس الى العناية بالاطفال والاولاد ، فيوفرون لهم الغذاء والكساء ويفتحون لهم المدارس ليصرفوا اذهانهـم عن هول المصيبة ويعدوا لامتهم جيلاً مقبلاً يتمكن من النهوض بها واعادة حقها وكرامتها : اما هنا في الدنيا العربية فقد اهملنا كل حاضرنا فخسرناه فكان الخطأ الاول ، ونهمل جيلنا المقبل لنخسره ايضاً فنسجل على انفسنا الخطأ الثاني ، لا بل الجريمة الثانية وهي اشد وادهى .

لقد قيض لنا ان نراقب عن كثب القوافل البشرية الزاحفة وان نقف على حقيقة حالهم في الملاجىء وتحت الشجر وفي المستشفيات ، فيالهول ما كنا نرى . حشد من البؤس والشقاء ومختبر للباحثين عن الجراثيم يروي غلتهم العلمية .

لو كان فيما يسمونه الضمير العالمي اثر من الحياة ، لثار على ظلم الانسان لاخيه الانسان .

69

عندما شرد هتلر اليهود في اوروبا، ما اكثر ما سمعنا بالضمير العالمي. فلماذا يغفل الآن، وكيف مات؟ واين فلاسفته وابطاله، والذين يحكمون العالم باسمه ويدّعون المحافظة عليه؟

تعالوا ايها المتمدنون الى فلسطين وجارات فلسطين. تعالوا لا لتوزعوا الحسنات بل لتشاهدوا جنازة الضمير العالمي وتضعوا اكليلاً على قبره في فلسطين. لقد طالبكم العالم العربي بالانصاف فانكرتموه عليه لتشبعوه وعوداً وعهوداً ودعاية بالاحسان على منكوبيه، وهو لو وعى لرفض ان يستعيض عن الانصاف بالاحسان.

■

لندرس قضية اللاجئين على ضوء الارقام:

ان عدد اللاجئين يبلغ ستمائة الفاً، يقدر عدد المحتاجين منهم للمعونة باربعمائة الف، يعني ان على كل مائة عربي من الاربعين مليوناً ان يتعهدوا لاجئاً محتاجاً واحداً. فلو قدر كفاف الشخص الواحد بثلاث جنيهات، يضاف اليها جنيه واحد يرصد لتعليم الطلاب والعناية بالاطفال، يكون مجموع ما يطلب للاجئين من معونة، مليوناً وستمائة الف جنيهاً شهرياً.

هي قيمة لو وزعت على العالم العربي بنسبة تراعى فيها الثروات ونظمت تنظيماً يمنع يد الغش عنها، لاستغنى العرب عن المساعدات الغربية وتحرر من جميل يفرضه عليهم المحسنون السياسيون ويوفرعن نفسه ثمناً لهذا النوع من الاحسان يدفعه من كرامته ومن حقه.

حاشا ان ننكر على المحسنين الحقيقيين المنزهين فضلهم، غير أنه تجاه القلة الصالحة لا يسعنا ان نتجاهل الكثرة المقابلة، هذه الكثرة

التي تدعونا الى الاحتراس من موجة الدعاية التي تقوم بها اوساط عالمية لا تزال الى الآن تصلينا حرباً عواناً في جوهر القضية وتملقنا بالدعاية العلنية اشفاقاً منها على منكوبينا .

يجب ان تخرج قضية اغاثة اللاجئين من نطاقها العالمي . هذا اذا اراد العالم العربي ان يحتفظ بالبقية الباقية من كرامته . فللاجئين حق على الدول العربية كلها ، على ملوكها ورؤساءها وحكوماتها وشعوبها . ومن الخطأ ان نعتبر المعونة التي تقدم لهم ، احساناً ، انما هي فرض واجب على العالم العربي اداءه طوعاً أو كرهاً .

ان الامر الذي يجب ان لا يكون موضع جدل ، عدم القاء مسؤولية النكبة على اللاجئين انفسهم ، والفكرة التي يجب ان تسود ذهنية كل فرد ، هي ان اللاجئين لم يهجروا ديارهم الا ثقة منهم بوعود الدول العربية ومساعدة لها في النضال ، وهرباً من الاحتلال الصهيوني الذي حسبوه احتلالا موقتاً واثقين من العهود التي كان يقطعها لهم الزعماء والحكومات . ولهذا كيفما جلت بين جماهير المشردين تتجلى لك روح النقمة على الذين لم يبروا بالوعود والعهود وفسحوا المجال بتلكئهم واختلافاتهم ومشاكساتهم ، لهذه النكبة التي اكثر مايشعر بها ويتعس بسببها ابناء فلسطين انفسهم .

اذن يجب ان يشعر العالم العربي ان اغاثة اللاجئين فرض عليهم والتهرب منه جريمة ، ومتى شعرت الدول العربية كلها بالواجب المحتوم عليها اصبح بامكانها ان تقوم به وحدها .

لقد بدا لنا اثناء تناولنا قضية اللاجئين ان في الشعوب العربية شعوراً بهذا الواجب ، ولقد رأينا من مختلف الاوساط الشعبية من منظماتها وافرادها ، من النساء والطلاب والاطفال ايضاً غيرة واندفاعاً

71

للقيام به على اكمل وجه . ولكن لا يسعنا ان نغض النظر عن تقصير الحكومات ، ان لم يكن كلها فاكثرها ، كما لا يسعنا ان نمرّ بموقف الجامعة العربية اللامبالي ، عندما نراها مكتفية بعقد الاجتماعات وتعيين اللجان وارسال نداءات الاستغاثة باصحاب البر والاحسان في العالم الخارجي . اما موقف رؤوساء الدول العربية وملوكها وامرائها واصحاب الملايين فيها ، ففي السكوت عنه كل البلاغة .

ان هجرة العرب الفلسطينيين وما يحيط بها من تساؤل وابهام عن مثيريها والذين شجعوا عليها ، وقضية هؤلاء اللاجئين التعساء بعد الهجرة ، وما يرافقها من مناورات لجعلها في المقام الاول من القضية الاساسية ، وغيرة العالم الخارجي على المنكوبين ، من حيث الموجبات والنتائج ، وموقف العالم العربي وجامعته وحكوماته ، الاقرب الى اللامبالاة والاعتماد على الغير ، ان هذه الامور كلها لدليل لا يقبل الجدل ، على تقاعس العرب عن اقدس واجب في اقدس قضية واجهتهم في تاريخهم ، واكثرها خطراً على مستقبلهم وكيانهم .

ملحق رقم ١

الحضارة العربية في القرن العشرين (*)

قد لا نكون على صواب اذا قلنا بوجود حضارة عربية الى جانب الحضارات القائمة في القرن العشرين . فقد كان للعرب حضارة في القرون الخمسة بين القرن السابع والقرن الثاني عشر ، جاءت وليدة البعث الاسلامي ، وانتشرت على يد الفتوحات الاسلامية . وعلى الرغم من ان فتوحات العرب وسيادتهم السياسية لم تدم اكثر من مائة وخمسين سنة ، فالحضارة العربية استمرت في الانطلاق في عالمي الشرق والغرب . فكان شأنها شأن الحضارة اليونانية التي انتشرت في الامبراطورية الرومانية هازئة، ولو الى حين، بتغلب الرومان على اليونان سياسياً وعسكرياً .

ودامت سيادة الحضارة العربية الى القرن الثاني عشر ، أو على الاصح ، الى مطلع القرن الثالث عشر . وبقي الفكر العربي يحتل المركز الاول في المجتمع الغربي ، يوزع عليه من العلوم والفنون والفلسفة ما اقتبسه عن اليونان والفرس، وما ابتكرته عبقرية علمائه وفلاسفته ، كابن سينا والرازي وابن رشد وابن خلدون والمئات

(*) مقال نشر في مجلة البيان النجفية ١٩٦٧

13

من اقرانهم .

غير ان سيادة الحضارة العربية التي دامت الى اكثر من ثلاثة قرون بعد افول سيادة العرب سياسياً واستعمارياً ، لم يكتب لها البقاء الى اكثر من ذلك ، ومن الطبيعي الا تبقى بدون استناد الى قوة سياسية تحميها من غزو الحضارات الناشئة عن سلطات طامحة بدورها الى السيادة . فاذا بالحضارة العربية تهوى من عليائها شيئاً فشيئاً عندما افاقت اوروبا من غفوتها وتوطدت ممالكها وامبراطورياتها ، وبنت حضارة جديدة على انقاض الحضارة العربية ، صبغتها بلونها ، وركزتها على اسس تخدم اهدافها وتهيىء لها السبل لبلوغ مطامعها وغاياتها . وقد كانت اوروبا تعمل على دعم حضارتها بكثير من القيم الانسانية والاجتماعية والعمرانية .

والحقيقة تفرض علينا القول بان عصر الانبعاث في اوروبا وما رافقه من تطورات اجتماعية وصناعية وعلمية ، وما كان يقابله في العالم العربي من انحلال سياسي واجتماعي وعلمي ، لم يكتف بان وضع حداً لسيادة الفكر العربي والحضارة العربية ، بل ذهب الى اكثر من ذلك ، ذهب الى استعمار الفكر العربي قولا وعملاً ، حتى في اثناء الاستعمار العثماني ، وبالرغم عنه .

وهكذا بقيت الحضارة العربية مدفونة في بطون التاريخ الى يومنا هذا . ننبشها احياناً لنروي بها كبريائنا ، مكتفين بالتغني بها وبذكراها دون ان نعني جدياً باستعادة تلك الامجاد الغابرة . ذلك لان الاستعمار الاوروبي ومطامعه من جهة ، والانحلال العربي والتفسخ من جهة ثانية ، والاطماع الفردية والعائلية والاقليمية من جهة ثالثة ، والتقاليد الرجعية والدينية من جهة رابعة ، اعمت

اعيننا عن التطلع الى المثل العليا وتركتنا فريسة للغير ، نكتفي بان نأخذ عنه ما يعطينا اياه، هو يجهد ونحن نكسل ، ثم نسبح بحمده ونشكر الله .

ثم كانت الحربان العالميتان الاخيرتان اللتان قلبتا وجه الارض . فاذا بدول عريقة تتفكك ، واذا بتيجان تتدحرج ، واذا بثورات تلهب النار في وقيد يابس، تجمّع فجف، فاحرق لهيبه هياكل طال عليها الزمن ، ودنس الغرور قدسية آلهتها كما دنست الشرور سكانها وعبادها .

ولقد هيأ الانقلاب العالمي للشعوب المظلومة فرصة للوثوب والتخلص من وطئة الاستعمار . ونشطت الشعوب العربية وهي من الشعوب المظلومة الى النضال لاسترجاع سيادتها، فاجتمع عقدها في جامعة عربية لا تنكر على كل دولة استقلالها ولكنها تجمع بين دول شقيقة ذات هدف موحد ومصالح موحدة ، فكانت هذه الجامعة محط آمال العرب في خلق حضارة عربية تعيد اليهم امجادهم الغابرة، وتقطع الطريق على الطامعين بهم من طلاب التوسع والاستعمار .

هذه هي بنظرنا مهمة الجامعة العربية . فاذا احسنت القيام بها كانت للعرب خيراً وبركة، والا ضاعت علينا الفرصة وبقينا الهية بيد المستعمرين .

لقد طالما تغنينا وتغنى اقطابنا بالعروبة . ولقد ظننا وظن بعضنا أن مجرد التغني بالعروبة والدعوة اليها تكفي لان تجعل منا جبهة بوجه الغير . وفاتنا ان نعلم ان العروبة اذا اقتصرت على كونها قومية دون ان نسعى لنجعل منها حضارة ، بقيت كلمة طنانة لاتصلح الا للتبجح ونظم الاشعار . فالعرب في القرون المجيدة الغابرة لم

يسودوا بقوميتهم ولا بدينهم ، بل سادوا وتوسعوا على حساب حضارتهم التي جعلت من فتوحاتهم مدرسة يلقون منها على العالم تعاليمهم ، ولم يلبث ان اصبح الفكر العربي استاذ الفكر الاوروبي كما اصبح المجتمع الاوروبي فصيلة من المجتمع العربي .

واذا اعتمدت الصراحة ، وساعتمدها عارية في هذا المقال ، فقد لا يكون بوسعي ان اشيد بما يقوم به العاملون ، وبالاحرى الموكول اليهم والمفروض بهم العمل في هذا السبيل .

ان في الاقطار العربية جمعاء وعياً سياسياً محسوساً . هذا لا شك فيه . ولكن الوعي السياسي لم يزل مفتقراً الى وعي اجتماعي لا يستقيم الاول بدونه . فالسياسة وحدها لا تبني دولة ولا تنشيء حضارة اذا بقي السواد الاعظم من الشعوب يعيش على هامشها ، او يعيش بها . بل بوسعي ان اذهب الى اكثر من ذلك لاقول ان الوعي السياسي وما ينطوي تحته من تعصب للقومية ، قد يكون عثرة في سبيل تقدم اية امة من الامم .

فالحضارة يجب ان ترتكز على اسس ثابتة من القيم الفكرية والاجتماعية والقومية . ومقاييس الحضارة في هذا العصر غير مقياسها في العصور السالفة . فعالم اليوم غير عالم الامس الغابر . انه في تطور مستمر نحو الانطلاق الحر في جميع ميادين الحياة . فالوهية الملوك وعصمة الحكام وتحكم الاقطاعيين ورؤساء الاديان واستثمار الخاصة للعامة واستعباد الطبقات الكادحة ، كل هذه الامور وما يشتق عنها هي من دوارس التاريخ ، والامة التي لا تأخذ من الانقلابات العالمية دروساً وعبراً ، ولا تماشي التطور وترغب في ان تعيش في القرن العشرين كانها في القرن العاشر او الخامس عشر هي امة فاشلة ولا

يكتب لها البقاء .

واراني موجهاً سؤالا يتحتم علي الاجابة عليه وهو : هل تقوم الدول العربية حكومات وشعوباً بما تفرضه سنة التطور ؟..

ما دمت قد وعدتك ايها القارىء بالصراحة فليس بوسعي ان اجيب على هذا السؤال بالايجاب . قد تتمرمر من هذا القول ولكن خذني بحلمك ولا تحول عليّ غضبك .

تعتري الاقطار العربية هزة سياسية ، فتتجند دولها في الكفاح لرد غوائلها . وتعتري الاقطار العربية هزات اجتماعية ، فتتقاعس الدول عن مجابهتها ، وان فعلت احتكمت دائماً الى مناورات السياسة واساليب السياسيين ، وما كانت السياسة يوماً وسيلة فضلى لتقدم الامم ورقي الشعوب . اننا في هذه الدنيا غارقون في طغيان سياسي : الحاكم إله معبود ، الوزير سيد في القوم ، رجل الحكومات لايطاله قانون ولا يتقيد بنظام ، بينما نرى من الجهة الثانية ان رجال الفكر والفن ممتهنون مغبونون . فالفكر في البلدان العربية يتعثر بالسياسة ، والحرية مرهونة بمشيئة السياسة ورجالها ، وقلما تجد من هؤلاء من يأخذ بالقيم الروحية والفكرية والفنية .

عفواً من السياسيين ، فما انا بظالمهم على قدر ما هم يظلمون المجتمع العربي . لفتة الى كل قطر من هذه الاقطار العزيزة تدلك على مايبدو في اقطابها من قصور محسوس في النواحي الاجتماعية والخلقية والفنية والتقدمية . قطر تعبث فيه مطامع الطبقة الخاصة ، فتترك العامة في جهل مطبق . وقطر تسيطر عليه الزعامات الدينية فيبلى شعبه بالتقسم والانقسام . وقطر آخر يتحكم بمقدراته جماعة الرجعيين والاقطاعيين ، فتنحر فيه الحرية في صميمها . تقاليد تقيد الفكر

بالسلاسل، وغارات تشن على المجددين، وجهل تستبيحه الحكومات، واوبئة لا تكافح الا بعد ان تفتك، وفقر لا يداوى الا بالاحسان المذل ما دام المحسن اليه راضياً بان يبقى عبداً للمحسن. ليت العروبة تتحول الى حضارة، تحطم السلاسل، وتقضي على الجهل والفقر والمرض وتستعيض عن الاحسان بالعمل. لقد ترك لنا اسلافنا تراثاً صالحاً لن يبقى صالحاً اذا منعنا عنه سنة التطور. اننا في القرن العشرين وانه لحيف علينا ان نعدد قروناً، ونبقى متمسكين بالقديم منها نتغنى باجداد غابرة، بينما العالم يعمل لاجداد حاضرة وآتية.

ان عالم اليوم في عراك عنيف بين حضاراته. وكل منها تسعى لاجتذابنا الى محورها، لا حباً بنا بل طمعاً بخيراتنا، تلهينا بالسياسة لانها اقرب الطرق لنوال مبتغاها منا. واني لا اعدو الحقيقة المؤسفة اذا قلت ان السياسة تفسد علينا السعي لايجاد مجتمع فاضل نبني عليه حضارة جديرة بالقرن العشرين. حضارة علمية شعبية تقدمية. هذه هي العروبة في نظرنا، نبني على مثلها العليا آمالنا لنقول:

نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل فوق مافعلوا

ملحق رقم ٢
جدل بيزنطي

العروبة بين النصرانية والاسلام (*)

« العروبة » كلمة يتغنى بها بعضنا في حين ان البعض الآخر لا يلفظها الا مع التحفظ والحذر ، مع انها كلمة ذات معنى واحد وهو صفة الانتساب الى ما هو عربي ؛ لغة في الدرجة الاولى ، ثم عادات وحضارة في الدرجات الاخرى .

فلماذا تكون « العروبة » انشودة لفئة من المواطنين وموضوع حذر لفئة اخرى ؟ هذا ما نريد ان نبحثه في هذه العجالة الموجزة:

ان ذكر العرب في التاريخ يرجع الى الف وخمسمائة سنة قبل ظهور الاسلام ، والى ثمانمائة وخمسين سنة قبل ظهور المسيحية على حد ما يقوله العلامة الدكتور فيليب حتي في كتابه « تاريخ العرب » . اذن كل بحث عن العرب والعروبة يجب ان يخرج عن المؤثرات الدينية اطلاقاً . واذا كانت الرسالة الاسلامية عملت على تقوية العروبة لانها خرجت من صميم الصحراء العربية ، فليس من ينكر ان كثيراً

(*) مقال نشر في مجلة العروبة ١٩٤٦

79

من قبائل تلك الصحراء دانت بالنصرانية وحاربت الوثنية وملوكها بمحالفة البيزنطيين اولا ، ثم حاربت الوثنية والبيزنطيين معاً بمحالفة الاسلام. وما ضرها قط ان تكون في جبهة واحدة مع اخوانها العرب المسلمين ضد الخوارج على الدين الذي يقول بإله واحد غير منظور.

فالعروبة نهضت في قطاع الجزيرة العربية الواسعة. تلك الجزيرة التي خرجت منها شعوب متعددة اطلقت عليها فيما بعد اسماء الشعوب الفينيقية والارامية والاشورية والبابلية . واذا كانت هذه الشعوب اصيبت بشيء من الاندثار، فالعروبة استطاعت المحافظة على كيانها بفضل الرسالة الاسلامية اولا ، وبفضل الوعي القومي العربي مسلماً ومسيحياً ثانياً . ومن المعروف ان المسيحيين العرب تفوقوا في بعض الاحيان بمحافظتهم على التراث العربي والحضارة العربية واللغة ، ولا سيما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. والتاريخ ينطق بذودهم عن اللغة الفصحى نقطة الدائرة في تكوين القوميات والحضارات.

من هذا يستنتج ان العروبة ليست الاسلام . والاسلام ليس العروبة . كما انه يستنتج ايضاً ان العروبة لاتنبش من بطون التاريخ وحده ، والتاريخ لا يستطيع تحديد قومية ما ، اكانت هذه عربية ام انكلوسكسونية ام سلافية ، او كانت هذه بيضاء ام صفراء ام حمراء . وقد يخطىء من يحدد العروبة بدين او بفترة من فترات التاريخ . فالعروبة هي مجموعة حضارات وثقافات وروابط اجتماعية واقتصادية وقرابية لا يضيرها ابداً تفاوت بين الشعوب المنتمية اليها، اذ ان سنة الطبيعة تقضي بهذا التفاوت كما يحصل بين ابناء العائلة الواحدة او الوطن الواحد.

اما هنا في لبنان، فاننا نأسف لهذه المشادة الكلامية بين فئة متحمسة للفظ وفئة ثانية ترى في هذا التحمس مظهراً من مظاهر

التنكر للوحدة اللبنانية والسيادة اللبنانية . فالعروبة لا تتناقض مع الفكرة اللبنانية . ولا الفكرة اللبنانية تنقض العروبة . اذ ان العروبة ليست دولة وحكماً، انما هي حضارة تجمع بين الشعوب العربية كلها، أكانت هذه تعيش في لبنان ام في العراق أم في دمشق أم في بقية الاقطار العربية . وكما ان الحضارة الانكلوسكسونية تجمع بين الشعب البريطاني والشعب الاميركي ولا تتناقض مع سيادة بريطانيا وسيادة اميركا ولا تحد من استقلال هاتين الامتين الكبيرتين، هكذا العروبة عندما ينظر اليها نظرة واسعة ، لا تتناقض ولا بوجه من الوجوه مع سيادة واستقلال لبنان ومصر والعراق وسوريا والحجاز

ان من اسباب فشلنا نحن ابناء الشرق العربي اننا نتلهى بالجدل والقشور ، واننا نقيم وزناً للالفاظ اكثر من معناها وحقيقتها ، وهذا هو شأننا في المشادة الواقعة بين فئتين من المواطنين ، ترى كل منها في تشدد الفئة الاخرى تحدياً لها في شعورها الوطني وفي حسها الديني ، ومع الاسف ان الشرق لا يزال مأخوذاً أو مسحوراً بهـــذا الحس القديم الذي مكنه فيه تاريخه وخلافات عناصره، وغذاه الاستعمار منذ اجيال واجيال لكي يستطيع بواسطته التحكم بنا واذلالنا واستثمار ارضنا وخيراتنا .

فاذا كان لنا من امنية ننشدها لهـذه الامة ، فهي ان تقلع عن التحسس بالاحاسيس القديمة البالية وتتمسك بالمثل التقدمية الجديدة لكي تبلغ اهدافها عن اقرب الطرق واكـثرها ملاءمـة لسنن التقدم والارتقاء ، وهذه الطرق لا يعبدها غير العلم ومعرفة الحقيقة والتمسك باهدابها ، لتنقشع من امام اعيننا غيوم الماضي واوهامـه وخرافاته وخزعبلاته . عندئذ، وعندئذ فقط، باستطاعتنا ان نقول ، فيصدقنا العالم اجمع ، اننا امة تستحق الحياة .

81

تم طبع هذا الكتاب
في الخامس عشر من تشرين الثاني
سنة ١٩٤٨

FRONT

83

Restored through a grant from

The Cartwright Foundation

Princeton University Library
32101 072540501